أجاثا كريستي

حديقة الموت

دار النجمة للنشر والتوزيع

حَديقة المَوْت
وقصص أخرى

أجاثا كريستي

حَديقة المَوْت
وقصص أخرى

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

حديقة الموت

رتّب هيركيول بوارو الرسائل الواردة إليه في بريده اليومي أمامه بعناية ثم تناول أُولاها وتفحّص العنوان بُرهة، وما لبث أن شقّ مظروف الرسالة من الخلف بفتّاحة صغيرة كان يضعها على مائدة الإفطار لهذا الغرض، وأخرج محتويات المظروف. وكان ثمة مظروف آخر مختوم بعناية بشمع وردي ومؤشَّر عليه بعبارة «خاصّ وسرّي»، فارتفع حاجبا بوارو قليلاً فوق رأسه الشبيه بالبيضة وغمغم لنفسه قائلاً: صبراً، سوف نرى!

ومرة أخرى أعمل الفتّاحة الصغيرة، وفي هذه المرة تكشف عن رسالة مكتوبة بخط مهتزّ، وقد وُضعَت خطوط للتأكيد تحت كلمات متعدّدة في الرسالة. بسط هيركيول بوارو الرسالة وأخذ في قراءتها، وكانت مصدّرة مرة أخرى بعبارة «خاص وسرّي»، وقد سُطر في الجانب الأيمن العلوي هذا العنوان: «روزبانك، تشارمانر غرين باكس» وتاريخ ٢١ آذار (مارس). وكان نصّها:

عزيزي السيد بوارو،

لقد أُشير عليّ أن أتصل بك من قِبَل صديق فاضل يعرف القلق والكرب اللذين عانيتهما أَخيراً، وليس معنى هذا أن ذلك الصديق يعرف ظروف الموقف الفعلية، فقد أبقيتها سرّاً لا يعرفه أحد غيري نظراً لخصوصيته البالغة. وقد أكّد لي صديقي أنك مثال الحرص والتبصّر، وأنه لن يكون ثمة خوف من توريطي في موقف أمام الشرطة

إذا ثبتت صحّة الشكوك والشبهات القائمة عندك، وهو ما لا أرضى أن يتطوّر إليه الأمر. لكن هناك بالطبع احتمال لأن أكون مخطئة تماماً، فأنا لا أشعر أنني في أحوالي الطبيعية هذه الأيام وأعاني من الأرق ومن أعراض مرض شديد انتابني في الشتاء الماضي بحيث يتيسّر لي أن أبحث الأمر بنفسي وأستقصي حقيقته. والواقع أنه ليست لديّ الوسائل ولا القدرة كي أفعل هذا. ومن ناحية أخرى لا بدّ لي أن أكرّر مرة أخرى أن هذه مسألة عائلية دقيقة كل الدقّة، وأريد -لاعتبارات كثيرة- أن يُسدَل الستار على المسألة كلّها وتبقى طيّ الكتمان، فإذا أُتيح لي أن أطّلع على الحقائق الخافية فسيكون بإمكاني أن أعالج الموقف بنفسي وهو ما أفضّله. لقد أوضحت لك الظروف بما فيه الكفاية، فإذا قبلتَ أن تتكفّل بهذا التحقيق فلعلك تبلغني بهذا على العنوان المبيّن أعلاه.

مع صادق التحية والاحترام،

أميليا باروبي.

قرأ بوارو الرسالة مرتين، وارتفع حاجباه مرة ثانية قليلاً وما لبث أن وضع الرسالة على جانب والتفت إلى الرسالة التالية في مجموعة البريد الوارد.

وفي تمام الساعة العاشرة دخل غرفة الآنسة ليمون سكرتيرته الخاصة التي كانت جالسة في انتظار تعليماته. كانت الآنسة ليمون في الثامنة والأربعين كالحة الوجه نافرة العظام، ولكنها كانت مثل بوارو تعشق الترتيب والنظام، ورغم مقدرتها على التفكير

وتشغيل خلايا ذهنها فلم تكن تفكر إلا حينما يطلب منها ذلك، وقدّم إليها بوارو بريد الصباح قائلاً: تكرّمي يا آنسة بكتابة ردود رفض على هذه الخطابات مُصاغة بالعبارات المناسبة.

فأجْرَت الآنسة ليمون عينيها على الرسائل المختلفة وهي تكتب كلمات مبهمة موجزة على كل رسالة بخط غير مقروء (إلا بالنسبة لها) وبرموز تراوحَت بين: «دقيق مثل الصابون، صفعة على الوجه، مواء القطط، موجز...» وبعد أن أتمت هذا رفعت رأسها عن الرسائل تنتظر مزيداً من التعليمات، فناولها بوارو رسالة أميليا باروبي، وبعد أن أخرجتها من غلافها المزدوج قرأتها ثم نظرت إليه مستفسرة وقالت وقد أمسكت قلمها على أهبة الاستعداد فوق مفكرة الاختزال: ماذا يا سيد بوارو؟

- ما رأيك في هذه الرسالة يا آنسة ليمون؟

فرفعت الآنسة ليمون الرسالة مقطبة وقرأتها مرة ثانية. كان مضمون أية رسالة لا يعني شيئاً في نظر الآنسة ليمون إلاّ من ناحية إعداد ردّ مناسب عليها، ونادراً ما كان سيّدها يطلب الاستعانة بصفاتها الإنسانية إلى جانب مقدرتها الوظيفية، وهذا كان يكدّر الآنسة ليمون إلى حدّ ما؛ فقد كانت كالآلة الصمّاء لا يعنيها بحال شيء من المشكلات الإنسانية، وكانت هوايتها الحقيقية في الحياة هي إتقان الأعمال المكتبية وإجادة وظيفتها كسكرتيرة خاصة إجادة يحسدها عليها كل إنسان، ورغم ذلك كان بوارو يعرف تماماً أن لها ذكاءً وخبرة كبيرَين في مشكلات الناس، ولهذا قال لها: خيراً؟

فأجابت الآنسة ليمون قائلة: سيّدة عجوز تبدو مرتاعة جداً، أسلوبها غامض ولا تعطي معلومات تذكر.

فقال هيركيول بوارو: أجل، لقد لاحظت هذا.

وأمسكت الآنسة ليمون القلم فوق المفكّرة مرة أخرى آملة أن تصدر التعليمات التي ترجوها، فاستجاب بوارو قائلاً: اكتبي لها أنه سوف يشرّفني أن أزورها في أيّ وقت تحدّده، إلا إذا فضّلت أن تجيء إلى هنا لاستشارتي. لا تكتبي الردّ على الآلة الكاتبة، اكتبيه بخط اليد.

- حسناً يا سيد بوارو.

وقدّم إليها بوارو رسائل أخرى قائلاً: هذه فواتير.

فأخذت الآنسة ليمون تصنّف الفواتير بسرعة بيد خبيرة قائلة: سأدفع قيمة الفواتير إلا هاتين الفاتورتَين.

- ولماذا هذا الاستثناء؟ أنا لا أجد فيهما أيّ خطأ.

- إنهما من شركتَين بدأتَ تعامُلك معهما منذ فترة صغيرة، وليس من اللائق أن نسرع بالسداد لئلاّ يظنوا أنك متلهّف على بضائعهما.

فغمغم بوارو قائلاً: حقاً، أنا أحني الرأس أمام خبرتك بأصول البيع والشراء في إنكلترا.

فقالت الآنسة ليمون بلهجة لها خطورتها: ليس هناك شيء لا أعرفه عن التجارة والتجّار.

وانهمكَت على الأثر في عملها بهمّة غريبة. وتمّ إعداد الردّ على رسالة الآنسة أميليا باروبي وإرساله لكن لم يرد بشأنه أيّ تعقيب، فخطر لبوارو أن السيدة العجوز ربما حلّت المشكلة

بنفسها، ومع ذلك فقد خامره شيء من الدهشة لأنها لم تكتب في هذه الحالة كلمة للمجاملة تبدي فيها أن خدماته أصبحت غير مطلوبة.

ثم حدث بعد مُضيّ خمسة أيام أن الآنسة ليمون قالت له بعد أن تلقّت منه تعليمات اليوم: أمّا بخصوص الآنسة باروبي التي كتبنا إليها ذلك الردّ على رسالتها فليس من المستغرَب أننا لم نتلقَّ منها أي ردّ؛ فقد توفّيَت.

فقال هيركيول بصوت خافت كان أقرب إلى الجواب منه إلى السؤال: توفّيت!

وفتحت الآنسة ليمون حقيبة يدها وأخرجت منها قصاصة جريدة قائلة: لقد قرأت الخبر في قطار الأنفاق وقطعته من الجريدة.

وقدّمت إليه القصاصة التي قطعتها بمقصّ من صفحة المواليد والوَفَيات وأخبار الزواج في جريدة المورننغ بوست، فقرأ النبذة التالية: «توفّيَت فجأة يوم ٢٦ آذار (مارس) أميليا جين باروبي في منزلها روزبانك، تشارمانر غرين، بالغة الثالثة والسبعين، غير مرغوب إرسال أكاليل ورد».

قرأ بوارو الخبر ثانية ثم غمغم: توفّيَت فجأة!

ثم قال بنشاط: تكرّمي بكتابة هذه الرسالة يا آنسة ليمون.

وسرعان ما نشط قلم الآنسة ليمون إلى تدوين التعليمات باختزال دقيق طبقاً للنص التالي:

عزيزتي الآنسة باروبي،

لم أتلقَّ أي ردّ منك، ولكن نظراً لأنني سأكون في منطقة تشارمانر غرين يوم الجمعة فسوف أزورك في ذلك اليوم وأناقش معك بالتفصيل الموضوع الذي أشرتِ إليه في خطابك،

المخلص: هيركيول بوارو

وأضاف بوارو قائلاً: اكتبي هذا الردّ على الآلة من فضلك، وإذا أرسلتِ الخطاب في الحال فسيصل إلى تشارمانر غرين هذه الليلة.

في اليوم التالي ورد خطاب بالنص الآتي:

سيدي العزيز،

ردّاً على خطابك فإن عمّتي الآنسة باروبي قد توفّيَت يوم ٢٦ الجاري، وبهذا فالموضوع الذي تتكلّم عنه لم تعُدْ له أهمية. مع وافر التحية.

ماري ديلافونتين

وابتسم بوارو مفكّراً يقول: نعم، هذا ما سوف ننظر فيه. إلى الأمام، إلى تشارمانر غرين.

* * *

كان في تشارمانر غرين منزل صغير أنيق تحفّه حديقة غَنّاء زاهية الخضرة. وتوقّف هيركيول بوارو في ممشى الحديقة وهو في طريقه إلى الباب الأمامي وجعل ينظر حوالَيه معجباً بأحواض

الورد البازغة التي نُسّقَت بنظام وعناية على جانبَي الممشى وكانت تبشّر بمحصول وافر في الأشهر المقبلة، أمّا في ذلك الفصل فقد أينعت أزهار البنفسج والتيوليب والزنابق الزرقاء، وكان الحوض الأخير تحفّه في جزء منه بعض الأصداف.

غمغم بوارو لنفسه: ما أغنية الأطفال التي يردّدونها في المدارس الابتدائية؟ نعم، إنها: «ما أبدعَ حديقتك يا سيدة مارتي دون كل الناس! وبها الأزهار الصدفية وذات الأجراس، والوصيفات الجميلات يتعهّدنها إلى الصفَّين كالحراس».

واختتم بوارو تأمّلاته قائلاً لنفسه: ربما لا يكون هنا صفّ من الوصيفات، ولكن على الأقل وصيفة واحدة تجعل هذه الحديقة منطبقة على ما جاء في الأغنية!

وفُتح الباب الأمامي ولاحت خادمة قصيرة نظيفة المظهر ترتدي ثوب المطبخ وتنظر في ريبة إلى الرجل الأجنبي الهيئة بنظارته وشاربه الكثيف الذي وقف يتحدّث إلى نفسه بصوت مسموع في الحديقة الأمامية، ورأى فيها فتاة صغيرة بادية الملاحة زرقاء العينين موردة الخدَّين. ومهما يكن فقد رفع بوارو قبّعته تحية وخاطبها قائلاً: معذرة، لكن هل الآنسة أميليا باروبي تقيم هنا؟

وشهقت الفتاة واتسعت عيناها قائلة: ماذا يا سيدي؟! ألم تعرف؟ لقد توفّيَت، وكانت وفاتها فجائية يوم الثلاثاء ليلاً.

ووقفت برهة متردّدة تتقاسمها غريزتان قويتان، الأولى سوء الظنّ بالزائر الأجنبي، والثانية الاستماع المحبّب عند طبقتها، وهو الكلام بتوسّع عن المرض والموت.

قال لها بوارو متجاهلاً الحقيقة: هذه مفاجأة مذهلة! لقد كان عندي موعد لمقابلة السيدة اليوم، على أي حال ربما يمكن أن أقابل السيدة الأخرى التي تقيم هنا.

فبدت الخادمة متشكّكة قليلاً وهي تقول: السيدة؟! ربما يمكنك أن تقابلها، لكنني لا أعرف إن كانت تريد مقابلة أحد.

فقال بوارو وهو يناولها بطاقته: ستقابلني.

كان لنبراته المتمكّنة تأثيرها، فقد تراجعت الخادمة وأدخلت بوارو إلى غرفة الجلوس إلى يمين الصالة، ولم تلبث أن ابتعدت بالبطاقة لاستدعاء سيدتها. وراح بوارو ينظر حوله، وكانت الغرفة عاديّة الأثاث والزخارف وليس بها شيء خارج عن المألوف يشير إلى شخصية أصحابها.

وفجأة شعر بوارو بحسّه المرهف أن هناك عينين تراقبانه فاستدار مرة واحدة وإذا به يرى فتاة وقفت في مدخل الشرفة تنظر إليه بعينين مُرتابتَين، كانت صغيرة الجسم شاحبة الوجه ذات شعر حالك السواد. دخلت الحجرة، وما إن حيّاها بوارو برأسه حتى انفجرت فجأة قائلة: لماذا جئت؟

ولم يُجِب بوارو واكتفى برفع حاجبَيه فقالت: أنت لست من المحامين.

وكانت تتكلّم الإنكليزية جيداً ولكن السامع لا يتردّد في الجزم بأنها ليست إنكليزية. وقال بوارو: ولماذا أكون من المحامين يا آنسة؟

فأخذت الفتاة تحدّق إليه في سخط واستياء ثم راحت

تقول: ظننت أنك منهم، ظننت أنك جئت كي تقول إنها لم تكن تعرف ما كانت تفعله. لقد سمعت عن مثل هذه الأمور وعن كون الإنسان غير متمالك لقوَاه العقلية، لكن هذا غير صحيح؛ فقد كانت تريد أخذ الميراث، وسوف أبحث عن محام لي إذا وجب الأمر لأن الميراث من حقّي. لقد كتبَت وصية بهذا، وهو ما سوف يكون.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت امرأة طويلة القامة قالت كلمة واحدة: كاترينا!

وسرعان ما انكمشت الفتاة على نفسها واحمرّ وجهها وغمغمت بكلام ثم انسحبت من الشرفة، والتفت بوارو لمواجهة القادمة التي وضعت حدّاً للموقف بكلمة واحدة. كان صوتها ينمّ عن التسلّط والازدراء والسخرية، وقد أدرك في الحال أنها ماري ديلافونتين صاحبة المنزل.

قالت له: السيد بوارو؟ لقد كتبت إليك ردّاً، يبدو أنك لم تتسلّم خطابي.

- بكل أسف؛ كنت غائباً عن لندن.

- فهمت، إذن هذا هو التفسير. لا بدّ أن أعرّفك بنفسي، اسمي ماري ديلافونتين وهذا زوجي، والآنسة باروبي عمّتي.

كان السيد ديلافونتين قد دخل بأتمّ هدوء لدرجة أنه لم يلاحظ قدومه. كان رجلاً طويل القامة أشيب الشعر يدلّك ذقنه بطريقة عصبية، وكان دائم النظر إلى زوجته حتى بدا واضحاً أنه ينتظر أن تبدأ الحديث. قال هيركيول بوارو: أنا آسف جداً لتطفُّلي عليكم في ظروف الحِدَاد العائلي.

فقالت السيدة ديلافونتين: أُدرك تماماً أنها ليست غلطتك، فعمّتي توفّيَت يوم الثلاثاء ليلاً وكانت وفاتها غير متوقّعة.

قال السيد ديلافونتين: غير متوقّعة أبداً، كانت مفاجأة.

وفي خلال ذلك كانت عيناه تراقبان نافذة الشرفة التي انسحبَت الفتاة الأجنبية عن طريقها. وقال هيركيول بوارو: أنا أقدّم اعتذاري وأنسحب.

وتقدّم خطوة نحو الباب فقال ديلافونتين: لحظة واحدة، هل قلتَ إنه كان عندك موعد مع العمّة أميليا؟

فقالت الزوجة: هلاّ أخبرتنا عن الموضوع؟ إذا كان هناك شيء يمكن أن نفعله.

فقال بوارو: كان موضوعاً خاصّاً. ثم أضاف ببساطة: أنا شُرطي سرّي.

فوقع من يد ديلافونتين تمثال صغير كان يعبث به، وبدت الحيرة على زوجته ثم قالت وهي تحدّق إلى بوارو: شُرطيّ سرّي؟! وكان عندك موعد مع عمّتي؟ يا للغرابة! ألا يمكنك أن تقول لنا أكثر من هذا يا سيد بوارو؟ يبدو أن الموقف أقرب إلى الخيال!

فلزم بوارو الصمت برهة، وعندما تكلّم اختار كلماته بدقة قائلاً: من الصعب عليّ أن أعرف ماذا يجب أن أفعل.

قال السيد ديلافونتين: ألم تذكر لك شيئاً عن بولنديين؟

- بولنديين؟!

فسارعت زوجته تقول: لا تكن أحمق يا هنري!

انهار ديلافونتين قائلاً: آسف، آسف، كنت فقط أخمّن.

ونظرت ماري ديلافونتين إلى بوارو نظرة صريحة قائلة: لو أمكنك يا سيد بوارو أن تخبرنا بأيّ شيء لكان هذا من دواعي سروري، وأؤكّد لك أن عندي أسباباً خاصّة لهذا الطلب.

فقال السيد ديلافونتين وقد بدا الانزعاج عليه: احترسي يا ماري؛ فقد لا يكون هناك شيء في الأمر.

ومرة أخرى أسكتته بنظرة قائلة: حسناً يا سيد بوارو؟

أمّا بوارو فقد هزّ رأسه بتؤدة ورصانة مبدياً أسفه قائلاً: في الوقت الحالي يا سيدتي يجب ألاّ أقول شيئاً.

وانحنى وتناول قبّعته واتجه نحو الباب، وسارت السيدة ديلافونتين معه إلى الصالة، وعندما وصل إلى عتبة الباب توقّف ونظر إليها قائلاً: أظنّك مغرَمة بحديقتك يا سيدتي.

- أنا؟ أجل، أنا أُمضي وقتاً كثيراً في تعهُّدها.

- أقدّم إليك أصدق التهنئة.

وانحنى مرة أخرى وسار إلى البوّابة، وعندما جاوزها وانعطف إلى اليمين نظر إلى الخلف وسجّلت عيناه انطباعَين، الأول أنه رأى وجهاً شاحباً يراقبه من نافذة في الطابق الأرضي، والثاني أنه رأى رجلاً له هيئة مشدودة يخطو جيئة وذهاباً على الرصيف المقابل. فأومأ بوارو لنفسه قائلاً: مؤكّد أن هناك فأراً في هذا الجُحر، فما الخطوة التي يجب أن يخطوها القطّ الآن؟

واستقرّ قراره فاتجه إلى أقرب مكتب بريد حيث أجرى مكالمتين هاتفيتين، وبدا له أن النتيجة كانت مُرْضية فذهب إلى قسم شرطة تشارمانر غرين حيث سأل عن المفتش سيمز.

كان المفتش سيمز رجلاً بديناً ضخماً دمث الخلق، وقد ابتدره على الفور قائلاً: السيد بوارو؟ هذا ما ظننته، لقد تلقّيت في هذه اللحظة مكالمة من رئيس شرطة المنطقة بخصوصك أخبرني فيها أنك ستحضر عندنا. تعالَ إلى مكتبي.

وما إن أغلق الباب عليهما حتى دعا بوارو إلى الجلوس وجلس المفتش في مقعد آخر واتجه بنظرة استفسار حادّة إلى زائره قائلاً: أنت أسرع من البرق يا سيد بوارو، جئتَ لمقابلتنا بخصوص قضية روزبانك، لكن قبل أن نجزم بأنها قضية فعلاً أخبرني، ما الذي أوصلك إليها؟

فأخرج بوارو الرسالة التي تلقّاها وقدّمها إلى المفتش، فقرأها باهتمام ثم قال: شيء ظريف، المشكلة أنها قد تنطوي على احتمالات كثيرة، ومن سوء الحظ أن الرسالة لم تكن أوضح مما هي عليه وإلاّ لوجدنا فيها مساعدة أكثر.

- لو كان ذلك لما كانت هناك حاجة إلى مساعدة.

- أتقصد...؟

- ستكون صاحبتها عندئذ بين الأحياء. لذلك أرجو يا صديقي المفتش أن تزوّدني بالحقائق، فأنا لا أعرف شيئاً على الإطلاق.

- هذه المسألة بسيطة. السيدة العجوز أُصيبَت بنوبة بعد

تناول العشاء مباشرة يوم الثلاثاء ليلاً، كانت نوبة شديدة، تشنّجات وآلام حادّة وما إلى ذلك، فأرسلوا في استدعاء طبيب، وفي الوقت الذي وصل فيه كانت قد توفّيَت. وكانت الفكرة هي أنها توفّيَت بسبب نوبة مَرَضية، لكن الطبيب لم يسترِح إلى الحالة العامّة وأوضح أنه لا يستطيع أن يعطي شهادة وفاة. هذا هو الموقف فيما يتعلق بالعائلة، فهم ينتظرون نتيجة التشريح الرسمي للجثة، أمّا نحن فقد تقدّمنا خطوة أكثر وأبلغنا الطبيب بالنتيجة دون تردُّد بعد أن قام بتشريح الجثة مع طبيب الشرطة، والنتيجة لا شك فيها ولا التباس؛ فالسيدة العجوز توفّيَت بسبب جرعة كبيرة من سُمّ الإستركنين.

- أجل، فهمت.

- هذا هو الواقع. القضية غامضة، والسؤال هو: مَن الذي دسّ لها السمّ؟ لا بدّ أن تكون الجرعة قد أُعطيَت لها قبل الوفاة مباشرة، وكان الاحتمال الأوّل هو أنها دُسّت في طعامها للعشاء، لكن هذا أمر مُستبعَد؛ فقد تناولوا جميعاً العشاء الذي كان مؤلّفاً من حساء الخرشوف الذي قُدّم إليهم من طبق مشترك مع الفطير بالسمك وكعكة بالتفاح.

- قلت إنهم تناولوا، فمن هم؟

- الآنسة باروبي والسيد ديلافونتين وزوجته، والآنسة باروبي لها وصيفة شبه ممرّضة وخادمة خاصة، وهي فتاة نصف بولندية، وقد تناولَت بقايا العشاء بعد نقلها من غرفة الطعام. وهناك خادمة في المنزل ولكنها خرجت تلك الليلة في راحتها الأسبوعية بعد أن تركَت الحساء على الموقد والفطير بالسمك في الفُرن وكانت كعكة التفاح باردة. الثلاثة أكلوا كلّهم من الطعام

نفسه، وبصرف النظر عن هذا فلست أظن أنه يمكن وضع السمّ للإنسان كي يبتلعه مع الطعام بهذه الطريقة؛ فهذه المادة مُرّة لاذعة، وقد أخبرني الطبيب أنه يمكن أن يحسّ الإنسان بطعمها في أيّ سائل حتى ولو كان بنسبة واحد في الألف أو شيء من هذا القبيل.

- ما رأيك في القهوة؟

- القهوة أقرب، لكن السيدة العجوز لم تكن تشرب القهوة قطّ.

- فهمت وجهة نظرك، يبدو أن القضية عويصة. ماذا شربَت العجوز في أثناء العشاء؟

- ماء.

- هذا يجعل الموقف أكثر صعوبة، هل كانت العجوز غنية؟

- أظنها كانت ميسورة الحال، نحن بالطبع لم نلمّ بعد بكل التفصيلات، وأظن مما استخلصته من الوقائع أن ديلافونتين وزوجته في حالة فقر مدقع، وكانت السيدة العجوز هي التي تتولى الإنفاق على الأسرة.

وابتسم بوارو ابتسامة يسيرة ثم قال: إذن فأنت تشتبه في الزوجين، أيّهما؟

- لا أقول بالضبط إنني أشتبه في أيّ منهما على وجه الخصوص، بل أشتبه في كل أقاربها الأقربين؛ فموتها يجلب لهم مبلغاً كبيراً من المال.

ثم تنهّد وقال: آه مِن ذلك الطبع الإنساني!

- أجل، ولكنه يكون أحياناً غير إنساني.

- هذا صحيح تماماً.

- هل كان هناك شيء آخر؟

- لا شيء غير الحساء والفطير بالسمك والكعك بالتفاح.

- كل هذا لا بأس به.

- فلننتقل الآن إلى صلب الموضوع. لقد اعتادت العجوز تناول قرص قبل الأكل، وليس هذا بالطبع من نوع الأقراص والحبوب المعروفة، ولكنه غلاف من الورق الأزرق الذي يعبَّأ مسحوق الدواء بداخله، ولم يكن القرص أكثر من دواء يساعد على الهضم لا ضرر منه.

- رائع، لا شيء أسهل من ملء قرص من هذا النوع بسمّ الإستركنين واستبداله بقرص من الموجود في العلبة. وهو ينزلق في البلعوم بجرعات من الماء ولا يكون له أيّ طعم.

- هذا صحيح، لكن المشكلة هي أن الفتاة هي التي أعطته لها.

- الفتاة البولندية؟

- نعم، كاترينا ريغر. لقد كانت شبه وصيفة وممرّضة ومرافقة للعجوز، فما الذي يدعو فتاة كهذه لأن تدسّ لها السمّ وموت الآنسة باروبي يؤدّي إلى أن تفقد الفتاة عملها وتشرَّد؟ والبحث عن عمل من الأمور الشاقّة هذه الأيام، وهي لم تتدرّب

على أيّ عمل خاص.

فقال بوارو: ومع ذلك إذا كانت علبة الأقراص في متناول الأيدي فمن الممكن أن تمتدّ إليها يد أيّ شخص آخر في المنزل.

– من الطبيعي أن نبحث هذه النقطة يا سيد بوارو، ولا بأس من أن أقول لك إننا نقوم بتحرّياتنا في هذه النواحي ولكن بهدوء، وعلى سبيل المثال متى جُهّزت علبة الأقراص لآخر مرة؟ وأين تُحفَظ عادة؟ ثم هناك محامي الآنسة باروبي، وأنا على موعد معه غداً، وكذلك رئيس المصرف الذي تتعامل معه. لا يزال هناك الكثير مما سنقوم به.

وعندئذ نهض بوارو قائلاً: أرجو منك رجاء أيها المفتّش، أن توافيني بكل ما يجدّ في القضية، وإليك رقم هاتفي.

– بالتأكيد يا سيّد بوارو، رأسان خير من رأس واحد بالطبع، وفضلاً عن ذلك لا بدّ من اشتراكك في هذه القضية بعد أن تلقّيت تلك الرسالة من الآنسة باروبي.

– هذا كرم منك يا سيدي المفتش.

وصافحه بوارو بأدب جمّ وانصرف على الأثر.

* * *

في عصر اليوم التالي دُعي بوارو إلى الهاتف، وقال المتكلّم: السيد بوارو؟ أنا المفتش سيمز، الأمور بدأت تتكشّف وتستقيم في تلك القضية التي نعرفها أنت وأنا.

- أحقاً؟! هاتِ ما عندك بالله عليك.

- إليك الخبر رقم واحد، وهو خبر ضخم. الآنسة باروبي تركَت في وصيّتها ميراثاً صغيراً لابنة أخيها، وأوصت بكل شيء إلى كاترينا تقديراً لخدماتها ورعايتها لها. وهذا يغيّر تكييف القضية كل التغيير.

في تلك اللحظة وثبت في خاطر بوارو صورة الفتاة الشاحبة بادية الاستياء تقول بصوت منفعل: «الميراث من حقي، لقد كتبَت وصية بهذا وهو ما سوف يكون». إذن فالميراث لن يهبط على كاترينا مفاجأة؛ فقد كانت تعرف بأمره سلفاً.

ومضى صوت المفتش سيمز يقول عبر الهاتف: الخبر رقم اثنين. لا أحد غير كاترينا تداوَل علبة الأقراص.

- هل أنت متأكّد من هذا؟

- الفتاة نفسها لا تنكر ذلك. ما رأيك في هذه النقطة؟

- طريفة إلى أبعد حدّ!

- نحن لا نريد الآن أكثر من شيء واحد هو الدليل القاطع على كيفية حصولها على مادّة الإستركنين، ولكن يصعب علينا أن نعرف ذلك.

- ألم توفّق بعدُ من هذه الناحية؟

- لقد بدأت التحرّي توّاً لأن التحقيق الرسمي لم يتمّ إلا صباح اليوم.

- وماذا حدث في التحقيق؟

- أُرجئَ لمدة أسبوع.

- والفتاة كاترينا؟

- طلبت حجزها للاشتباه؛ فأنا لا أريد أن أتعرّض للمخاطر، فقد يكون لها أصدقاء لهم نفوذ ويحاولون إبعاد التهمة عنها.

فقال بوارو: لا، لا أظن أن لها أيّ أصدقاء.

- أحقاً؟ ما الذي يجعلك تقول هذا يا سيد بوارو؟

- هذه مجرّد فكرة خطرَت لي. أليست عندك أخبار أخرى؟

- لا شيء مما له أهمية، كل ما هنالك أن الآنسة باروبي كانت في الأيام الأخيرة تضارب على الأسهم والسندات المملوكة لها، ولا بدّ أنها خسرت مبلغاً كبيراً. المسألة لها حكاية غريبة، لكن لا أعتقد أن لها أيّ مساس بمجرى القضية العام، أعني في المرحلة الحالية.

- ربما كنت على حقّ، لك شكري الخالص على هذه المعلومات القيّمة.

- لا شكر على واجب. أنا رجل عند كلمتي، فقد رأيتك مهتمّاً بالقضية، ومن يدري؟ فقد يمكنك أن تمدّ لي يد المساعدة قبل أن تنتهي القضية.

- هذا سيكون من دواعي سروري العظيم، وربما تجد المساعدة المطلوبة إذا أمكنني أن أضع يدي على تحقيق معيّن

للفتاة كاترينا.

فقال المفتش سيمز بلهجة شفّت عن الدهشة: أظنك قلت إن الفتاة ليس لها أيّ أصدقاء.

فقال هيركيول بوارو: كنت مخطئاً، فلها صديق واحد.

وقبل أن يتمكّن المفتش من توجيه سؤال آخر وضع بوارو سماعة الهاتف.

وبوجه تعلوه أمارات الجدّ ساقته قدماه إلى غرفة السكرتيرة الآنسة ليمون حيث كانت جالسة أمام الآلة الكاتبة، فرفعَت يديها عن مفاتيح الآلة لدى قدوم سيّدها ونظرت إليه متسائلة، فقال بوارو: أريد أن تتصوّري نفسك في وضع معيّن.

فلم تتمالك الآنسة ليمون إلا أن أنزلت يديها إلى حِجْرها مستسلمة، فهي لا تتقن في الدنيا سوى النسخ على الآلة الكاتبة ودفع فواتير الحسابات واستيفاء الاستمارات وتدوين المواعيد، أمّا أن يطلب منها أن تتصوّر نفسها في موقف افتراضي ففي هذا ما يضايقها كل المضايقة، ولكنها رغم ذلك تقبّلت هذا الموقف كجزء كريه من واجبات عملها. بدأ بوارو يقول لها: أنت فتاة بولندية.

فقالت الآنسة ليمون: فليكن.

- وأنت وحيدة ولا صديق لك في هذه البلاد، وهناك أسباب خاصّة تجعلك لا تحبّين العودة إلى بولندا، وأنت تعملين كممرّضة ووصيفة ومرافقة لسيدة عجوز، وأنت صابرة ممتثلة ولا تبدين أقلّ شكوى.

فقالت الآنسة ليمون مرة أخرى: فليكن.

– والسيدة العجوز تحبّك وتقرّر أن تترك ثروتها لك، وهي تخبرك بهذا.

وتوقّف بوارو برهة، ومرة ثالثة قالت الآنسة ليمون: فليكن.

– ثم لا تلبث السيدة العجوز أن تكتشف شيئاً، ربما يكون مسألة متعلّقة بالمال، وربما وجدَت أنك لم تكوني أمينة معها، أو ربما يكون الأمر أخطر من ذلك كأن يكون مسألة طعام تغيّر مذاقه أو دواء تغيّر طعمه. على أيّ حال هي لا تلبث أن تشتبه في أمرك، وتكتب رسالة إلى شرطي سرّي هو أنا، وكان المقرّر أن أزورها بعد ذلك مباشرة، وهنا تكون البليّة. المهمّ إذن هو العمل بسرعة، وهكذا يحدث قبل وصول الشرطي السرّي أن تموت السيدة العجوز وتؤول إليكِ الثروة. قولي لي إذن، هل يبدو هذا معقولاً في نظرك؟

فقالت الآنسة ليمون: معقول جداً بالنسبة لفتاة بولندية، أمّا أنا فلا أقبل أبداً أن أعمل بوظيفة مرافقة لأحد. أنا أحبّ أن تكون واجبات عملي محدّدة بما فيه الكفاية، وبالطبع أنا لا أتصوّر أبداً أن أقتل أيّ إنسان!

فتنهّد بوارو وقال في النهاية: كم أفتقد صديقي هاستنغز! إنه رجل ذو خيال وتصوّر وله عقلية خصبة، صحيح أن تصوّراته دائماً خاطئة ولكن هذا في حدّ ذاته دليل مرشد لي.

ولزمت الآنسة ليمون الصمت، لقد سمعت من قبل عن

الكابتن هاستنغز صديق بوارو الحميم ولكنها لم تهتمّ، وإنما راحت تنظر بحنين إلى الصفحة المنسوخة على الآلة الكاتبة أمامها.

قال بوارو شارداً: إذن فهذا يبدو معقولاً في نظرك؟

- ألا يبدو معقولاً لك أيضاً؟

فتنهّد بوارو قائلاً: ربما كنت على حقّ.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف فخرجَت الآنسة ليمون إلى الغرفة المجاورة للردّ ثم عادت قائلة: المفتش سيمز مرة ثانية.

فأسرع بوارو إلى الهاتف فسمع المفتش سيمز يقول له: لقد وجدنا ورقة بها مادّة الإستركنين في غرفة نوم الفتاة كانت مخبأة تحت حشية السرير، وفي ظني أن هذا يحسم القضية.

فردّ عليه بوارو قائلاً: أجل، يحسم القضية.

وكانت نبرات بوارو تنمّ عن ثقة مفاجئة. وبعد أن ترك سماعة الهاتف جلس إلى مكتبه وأخذ يرتّب الأوراق التي تعلوه بحركات آلية، ثم غمغم لنفسه قائلاً: كان هناك شيء غير صحيح، لقد شعرت بهذا. لا، لم أشعر به، لا بدّ أنه شيء رأيته. إلى العمل يا خلايا المخّ الرمادية، فكّري، تأمّلي. هل كان كل شيء متماشياً مع المنطق والعقل؟ الفتاة؟ حاجتها للمال؟ السيدة ديلافونتين؟ زوجها وكلامه عن البولنديين؟ الغرفة؟ الحديقة؟ الـ... نعم! الحديقة!

واعتدل بوارو في جلسته منتصباً ولمع الضوء في عينيه

الخضراوين، وما لبث أن وثب من مكانه وذهب إلى الغرفة المجاورة وقال لسكرتيرته: آنسة ليمون، هل تتكرّمين بأن تتركي عملك الآن وتقومي بتحرّيات أريدها عن شيء معيّن؟

- تحرّيات يا سيد بوارو؟! أنا آسفة لأنني غير متمكّنة من مثل...

فقاطعها بوارو قائلاً: لقد قلتِ لي مرة إنك تعرفين كل شيء عن التجارة والتجّار.

فقالت الآنسة ليمون بثقة: مؤكّد، أعرف هذا.

- إذن فالمسألة بسيطة، عليك الآن أن تذهبي إلى حيّ تشارمانر غرين وتبحثي عن بائع أسماك.

فقالت الآنسة ليمون بدهشة: بائع أسماك؟!

- بالضبط، بائع الأسماك الذي يزوّد روزبانك بالأسماك، وعندما تعثري عليه وجّهي إليه سؤالاً معيّناً.

وناولها قصاصة ورق فأخذتها وقرأت مضمونها دون اهتمام، ثم أومأت برأسها وأغلقت غطاء الآلة الكاتبة. وقال لها بوارو: سنذهب إلى تشارمانر غرين سوياً، أنتِ إلى بائع الأسماك وأنا إلى قسم الشرطة، والمسافة لا تستغرق أكثر من ثلث الساعة.

* * *

ما كاد بوارو يدخل على المفتش سيمز حتى حيّاه هذا في دهشة قائلاً: أنت سريع يا سيد بوارو! لقد كنت أكلّمك بالهاتف منذ ساعة فقط!

- عندي طلب أرجوه منك، هو أن تسمح لي بمقابلة تلك الفتاة المدعوة كاترينا. ما اسمها الكامل؟

- كاترينا ريغر. حسناً، لا أظن أن هناك ما يمنع من ذلك.

وبدت كاترينا أمام بوارو أكثر شحوباً وسخطاً مما كانت عليه من قبل، فخاطبها بوارو بأتمّ رقّة قائلاً: يا آنسة، أريد أن تتأكّدي أنني لست عدوّك. أريد أن تخبريني بالحقيقة.

فراحت تقول متحدّية: لقد قلت الحقيقة، قلت الحقيقة لكل إنسان، إذا كانت السيدة العجوز قد تسمّمَت فلست أنا التي سمّمتها، المسألة كلها خطأ، أنتم تريدون أن تمنعوني من الحصول على حقّي في المال.

كان صوتها حادّاً ورنّاناً وبدت أقرب إلى فأر صغير محاصَر، فاستطرد بوارو يقول: أخبريني عن مسألة القرص يا آنسة، ألم تتداوله يد إنسان آخر غير يدك؟

- هذا ما قلته، علبة الأقراص جُهّزَت في الصيدلية عصر ذلك اليوم وقد أحضرتها معي في حقيبتي، وكان ذلك قبل العشاء بفترة قصيرة. لقد فتحت العلبة وناولت الآنسة باروبي قرصاً مع كوب ماء.

- ألم يلمسه أحد غيرك؟

- نعم، لم يلمسه أحد غيري.

- ألم تتناول الآنسة باروبي في العشاء غير الأصناف التي ذكرت لنا، الحساء والفطير بالسمك والكعك بالتفاح؟

- لم تتناول شيئاً غير هذا.

فربت بوارو على كتفها قائلاً: تشجّعي يا آنسة، لا زالت هناك فرصة للحرّية، والمال، وحياة الراحة.

أمّا هي فكانت نظراتها إليه مشوبة بالتشكّك والارتياب. وعندما خرج بوارو قال له المفتش سيمز: أنا لم أفهم تماماً ما قلته لي في الهاتف عن وجود صديق للفتاة.

فقال هيركيول بوارو: لها صديق واحد، هو أنا.

وانصرف بوارو من مقرّ الشرطة قبل أن يستطيع المفتش سيمز أن يتمالك جأشه ويسيطر على حواسّه.

* * *

ما كاد بوارو يجلس مع الآنسة ليمون في مشرب شاي القِطّ الأخضر حتى طرقَت السكرتيرة صميم الموضوع دون مقدّمات قائلة: بائع الأسماك اسمه رودغ، بشارع هاي ستريت، وأنت على صواب فيما قلت، فقد باع دستة ونصف الدستة بالضبط من المحار، وقد كتبت ما قاله هنا.

وقدّمت إليه الورقة، فغمغم بوارو بأتمّ ارتياح: رائع!

* * *

انتقل هيركيول بوارو إلى المنزل روزبانك، ووقف في الحديقة الأمامية والشمس تغرب من خلفه، فخرجت إليه السيدة ديلافونتين واستقبلته قائلة بلهجة التعجّب: سيد بوارو؟ أراك عُدْتَ!

- أجل، عُدْت.

وتوقّف برهة ثم استطرد يقول: عندما جئت إلى هنا في المرة الأولى يا سيدتي تردّدَت في ذاكرتي أغنية أطفال المدارس التي تقول: «ما أبدع حديقتك يا سيدة مارتي دون كل الناس! وبها الأزهار الصدفية وذات الأجراس، والوصيفات الجميلات يتعهّدنها على الصفَّين كالحرّاس». وكل الفرق بين الأغنية وبين الواقع يا سيدتي هو أنها لم تكن الأزهار الصدفية بل كانت أصداف المحار.

قال بوارو هذا مشيراً إلى الأزهار، وفي الحال سمعها تشهق وتكتم أنفاسها، وظهر في عينيها سؤال فأومأ بوارو برأسه قائلاً: نعم، قد عرفتُ كل شيء. الخادمة تركَت طعام العشاء جاهزاً وسوف تُقْسِم كما تقسم كاترينا أن ذلك الطعام هو كل ما أكلتموه في العشاء، والفرق الوحيد هو أنكِ أنت وزوجك تعرفان وحدكما أنك اشتريت دستة ونصف الدستة من المحار إكراماً لخاطر العمّة الكريمة.

ونظر بوارو إلى وجهها المتغيّر وقال: سُم الإستركنين في المحارة وهي تبتلَع بسهولة، لكن تبقى بعد ذلك الأصداف، ويجب ألاّ يُلقى بها في وعاء الفضلات وإلاّ رأتها الخادمة، وهكذا فكّرتِ في أن تزيَّن بها حافّة أحواض الزهور، لكنها لم تكن كاملة حول الحوض لأنها لم تكن كافية، وكان تأثيرها سيّئاً لأنها شوّهت منظر الحديقة الفاتن. والواقع أن تلك الأصداف المعدودة بدت لي متنافرة واسترعت نظري لأوّل وهلة عند زيارتي الأولى.

- أظن أنك خمّنتَ الحقيقة بما جاء في الرسالة، كنت أعرف أنها كَتَبَت لك، لكنني لم أعرف مدى ما ذكرَته لك.

فقال بوارو مراوغاً: لقد عرفت على الأقلّ أنها مسألة عائلية. لو كانت المسألة متعلّقة بكاترينا لما كان هناك أيّ معنى لمحاولة التستّر على المشكلة. لقد فهمت أنكِ أنت أو زوجك كنتما تتلاعبان بالأسهم والسندات المملوكة لعمّتك لما فيه مصلحتكما وأنها اكتشفت الحقيقة.

وأومأت ماري ديلافونتين إيجاباً وراحت تقول: نحن كنا نفعل هذا منذ سنوات، ولم يخطر ببالي أنها من الذكاء والوعي بحيث تفطن إلى الحقيقة، ثم إنني علمت فيما بعد أنها أرسلَت تستعين بشرطيّ سرّي، ثم اكتشفت أيضاً أنها ستترك ثروتها لكاترينا، تلك المخلوقة البائسة الهزيلة!

- ولهذا السبب وضعتِ لفافة الإستركنين في غرفة نوم كاترينا؟ مفهوم. فعلت هذا كي تنقذي نفسك وزوجك مما قد اكتشفته وتلصقين تهمة القتل بفتاة بريئة. أليس عندك رحمة؟

فهزَّت ماري ديلافونتين كتفيها وراحت تحدّق إليه بعينيها الصافيتين. لقد تذكّر إتقان تمثيلها يوم زيارته الأولى ومحاولاتها التغطية والتمويه من جانب الدوافع الإنسانية والنزعات الرحيمة. وقالت أخيراً تعقيباً على كلماته ولهجتها تقطر احتقاراً: تقول الرحمة لتلك الفأرة الحقيرة المتآمرة؟

فقال هيركيول بوارو بتؤدة: أظن يا سيدتي أن كل مشاعرك في الدنيا كانت تنحصر في شيئين اثنين فقط، أحدهما زوجك.

وفي الحال رأي شفتيها ترتعشان، فأضاف قائلاً: والثاني هو حديقتك.

وأدار النظر حوله، وبدا كأنه يعتذر بنظراته للزهور عما فعله وعمّا يوشك أن يفعله.

* * *

الاختطاف

الآن وقد أصبحَت الحرب ومشكلاتها حدثاً من أحداث الماضي فأنا أستطيع أن أكشف للعالَم وأنا مطمئنّ الدور الذي لعبه صديقي بوارو في وقت من أشدّ الأوقات حرجاً في تاريخ إنكلترا. وقد ظلّ هذا الدور سرّاً حرص الجميع على كتمانه، فلم تصل إلى الصحف همسة عنه، ولكن الظروف والمبرّرات التي كانت تحتمّ الكتمان قد زالت الآن، وأنا أشعر أن من واجب إنكلترا أن تعرف دَيْنها لصديقي القصير القامة الذي استطاع بذكائه الفذّ أن يجنّب البلاد كارثة كبرى.

حدث ذات مساء، ولا ضرورة لذكر التاريخ؛ إذ يكفي أن أقول إن ذلك كان في الوقت الذي راح فيه أعداء إنكلترا يدْعون للصلح عن طريق المفاوضات. لقد حدث في ذلك المساء أنني كنت وصديقي بوارو نتجاذب أطراف الحديث في شقته، فقد أُصبت في الحرب ونُقلت إلى وظيفة في إدارة التجنيد فتعوّدت أن أزور بوارو كل مساء بعد العشاء لنتحدّث عن القضايا الهامّة التي يقوم بتحقيقها. وقد أردت في ذلك المساء أن أتناقش معه في الحادث المثير الذي أذيع قبل بضع ساعات عن محاولة اغتيال السيد ديفيد ماكنزي رئيس وزراء إنكلترا.

وكان من الواضح أن الخبر كما نشرته الصحف قد خضع لرقابة مشدّدة. كان خبراً موجزاً لم يُذكر فيه سوى أن رئيس الوزراء قد نجا بأعجوبة من محاولة اغتياله، فقد مرّت الرصاصة

بالقرب من رأسه وأحرقت بشرة وجهه.

وكان رأيي في الحادث أن مسؤوليته تقع بالدرجة الأولى على رجال الشرطة الذين سمحوا بإهمالهم لمثل تلك المحاولة أن تقع، فنحن جميعاً نعلم أن إزالة السيد ماكنزي من الميدان أمنية كل جاسوس ألماني يعمل في بريطانيا، ذلك أن السيد ماكنزي (أو ماكنزي المناضل كما يدعوه أعضاء حزبه) كان يقاوم بكل ما أوتي من قوّة وبنجاح واضح حركة دعاة التهدئة وأنصار السلام عن طريق المفاوضة. كان السيد ماكنزي أكثر من رئيس وزراء إنكلترا، بل كان هو إنكلترا ذاتها، وإزالته من دائرة الضوء تعني توجيه ضربة قاصمة لإنكلترا تشلّ حركتها وترغمها على أن تجثو على ركبتيها.

كنت أتحدّث بهذا إلى صديقي بوارو، ولكنه كان مشغولاً بإزالة بقعة من الدهن في ثوبه فلم يُعِرني أذناً صاغية وقال: صبراً لحظة يا صديقي ريثما أزيل هذه البقعة البشعة.

فابتسمت؛ فقد كنت أعرف مدى شغفه بالنظام والنظافة. وسألته وأنا أشعل لفافة تبغ: هل ثمة قضايا جديدة مثيرة؟

فأجاب: لقد كلّفَتني إحدى سيدات الطبقة الراقية بأن أبحث عن زوجها. وهي مهمّة شاقّة تتطلّب لباقة عظيمة لأنه سيَحزن وينزعج إذا أنا وجدته؛ فأنا واثق من أنك إذا رأيت زوجته فلا بدّ أن ترثي له.

فضحكت في حين تنهّد بوارو وهتف قائلاً: أخيراً تخلّصت من البقعة وها أنا ذا تحت تصرّفك.

- أردت معرفة رأيك في محاولة اغتيال رئيس الوزراء.

فأجاب بوارو على الفور: محاولة صبيانية لا ينبغي أن تنظر إليها نظرة جدّية؛ فليس بالبنادق تُرتكَب حوادث اغتيال العظماء، فالبندقية سلاح قديم عفا عليه الزمن.

- لقد كادت المحاولة أن تنجح.

فهزّ بوارو رأسه في ضيق ونفاد صبر وهمّ بأن يجيب ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة وأطلّت منه مدبرة البيت لتقول لبوارو إن هناك رجلين يطلبان مقابلة. واستطردت تقول: هما لم يذكرا اسمَيهما ولكنهما قالا إن الأمر هام جداً وعاجل.

- دعيهما يدخلان.

وبعد لحظات دخل الزائران، وما إن رأيتهما حتى وثب قلبي بين ضلوعي. كان أحدهما هو اللورد أستير رئيس مجلس العموم، أمّا الثاني فكان السيد برنارد عضو مجلس الوزراء والصديق الحميم للسيد ماكنزي. ونظر اللورد أستير إلى صديقي وسأل: السيد بوارو؟

فحنى بوارو قامته باحترام. ونظر اللورد نحوي وتردّد قليلاً ثم قال: مهمّتي خاصة جداً.

فأجاب بوارو وهو يومئ إليّ بأن أبقى: في استطاعتك أن تذكرها أمام الكابتن هاستنغز، وهو ليس كامل الأوصاف ولكن الثرثرة ليست من عيوبه.

وظلّ اللورد أستير على تردّده ولكن السيد دودغ استحثه بقوله: تكلّم بصراحة ودعنا من اللفّ والدوران، فسرعان ما ستعرف إنكلترا كلّها حقيقة الوضع. الوقت هو أهمّ شيء.

فقال بوارو بأدب: تَفضّل بالجلوس، هل تفضّل هذا المقعد الكبير يا سيدي اللورد؟

فدُهش اللورد أستير وقال: هل تعرفني؟

فابتسم بوارو وأجاب: بالتأكيد، أنا أقرأ المجلاّت المصوّرة، فكيف لا أعرفك؟

- أصغ إليّ يا سيد بوارو، لقد جئت لاستشارتك في أمر على جانب عظيم من الأهمية والخطورة، ويجب أن تعِدَني بالكتمان.

- أعدُك، فثِقْ في وعد هيركيول بوارو.

- الأمر يتعلّق برئيس الوزراء، ونحن في ورطة شديدة.

- إذن فالإصابة خطيرة.

- أية إصابة؟!

- الرصاصة التي خدشَت خدّه.

فقلب السيد دودغ شفته وصاح: هذه حكاية قديمة.

فقال اللورد أستير: في الواقع كما يقول زميلي لقد انتهينا من المحاولة الأولى، ومن حسن الحظ أنها فشلت، وكم كنت أتمنّى أن أقول ذلك أيضاً عن المحاولة الثانية.

- وهل كانت هناك محاولة ثانية؟

- نعم، ولكن من نوع آخر. لقد اختفى رئيس الوزراء يا سيد بوارو.

- ماذا تقول؟!

- لقد اختطف.

فصِحْت وقد تملّكَني الذهول: مستحيل!

فرمقني بوارو من ركن عينه وفهمت من نظرته أنه يريدني أن ألزم الصمت، واستطرد اللورد قائلاً: من سوء الحظ أن هذا الأمر الذي يبدو مستحيلاً قد حدث فعلاً.

فنظر بوارو إلى السيد دودغ وقال: لقد قلتَ منذ لحظات يا سيدي إن الوقت هو كل شيء، فماذا كنت تعني بذلك؟

فتبادل الرجلان نظرة ذات معنى وقال اللورد: هل سمعت عن مؤتمر الحلفاء الذي سيُعقَد قريباً يا سيد بوارو؟

فأومأ بوارو برأسه علامة للإيجاب، ومضى اللورد في حديثه قائلاً: لأسباب واضحة لم تذكَر أية بيانات أو معلومات عن موعد عقد هذا المؤتمر أو مكانه، ولكن على الرغم من حجْب تاريخ عقد المؤتمر عن الصحف إلا أن الدوائر الدبلوماسية كلّها تعرفه. المؤتمر سيُعقَد مساء غد الخميس بقصر فرساي، وفي استطاعتك الآن أن تدرك مدى خطورة الموقف، ولا أخفي عنك أن جود رئيس الوزراء في المؤتمر ضرورة حيوية؛ فدعوة السلام التي بدأها العملاء الألمان وعملوا على إذاعتها قد نشطت في الفترة الأخيرة، والرأي العام العالمي يعتقد أن رئيس وزراء إنكلترا سيكون أقوى شخصية في المؤتمر وأن الكلمة العليا في النهاية ستكون له، ولذلك فتخلُّفه عن المؤتمر ستكون له أسوأ النتائج، وقد يترتب عليه صلح مجحف بالحلفاء عامّة وبإنكلترا

بصفة خاصة. وليس لدينا من نرسله مكانه؛ فهو الوحيد الذي يستطيع تمثيل إنكلترا.

فتجهّم وجه بوارو وقال: إذن أنت تعتقد أن اختطاف رئيس الوزراء هو محاولة مباشرة لمنعه من حضور المؤتمر.

- هذا أمر لا شك فيه. لقد اختطف وهو في طريقه إلى فرنسا للاشتراك في مؤتمر فرساي.

- ومتى سيُعقَد المؤتمر؟

- في الساعة التاسعة من مساء غد.

فأخرج بوارو من جيبه ساعة ضخمة وأطلّ فيها وقال: الساعة الآن التاسعة إلا الربع.

فقال السيد دودغ: أي أن أمامنا أربعاً وعشرين ساعة.

فقال بوارو: أربع وعشرون ساعة وربع الساعة، لا تنسَ ربع الساعة يا سيدي فقد نفيد منه. والآن، ما تفصيلات حادث الاختطاف؟ هل وقع الحادث هنا في إنكلترا أم في فرنسا؟

- بل وقع في فرنسا، لقد عبر السيد ماكنزي بحر المانش إلى فرنسا صباح اليوم وكان من المقرّر أن يقضي تلك الليلة في ضيافة القائد العام لقوّات الحلفاء في فرنسا ثم يستأنف السفر في الصباح إلى باريس، وقد عبر السيد ماكنزي بحر المانش بإحدى المدمّرات، ولدى وصوله إلى بولونيا استقبلته سيارة من القيادة العامّة وسيارة إلياور، القائد العام.

- ثم؟

- ثم غادر الراكب بولونيا ولكنه لم يصل إلى باريس.

- ماذا تعني؟

- كانت السيارة مزيّفة وكذلك كان إلياور، وقد تمّ العثور على السيارة الحقيقية على جانب الطريق وبها السائق وإلياور الحقيقيان وهما مكمّما الفم مشدودا الوثاق.

- والسيارة المزيفة؟

- ما زالت هاربة.

- غير معقول! ولكنها لن تظلّ كذلك طويلاً ولا بدّ أن تضبَط قريباً.

- هذا ما ظنناه، وقد خُيّل إلينا أنها مسألة وقت فحسب، خاصة وأن تلك المنطقة من فرنسا تخضع للقوانين العسكرية، ورجال الشرطة الفرنسية والشرطة الحربية ورجال اسكتلنديارد يبذلون قصارى جهدهم، ولكن لم تظهر للآن أية نتيجة.

وفي تلك اللحظة سمعنا طرقاً على الباب فدخل ضابط شابّ يحمل مظروفاً كبيراً مختوماً قدّمه إلى اللورد أستير قائلاً: لقد ورد الآن من فرنسا يا سيدي فأحضرته فوراً طبقاً لأوامركم.

قال ذلك وانسحب، ففضّ اللورد المظروف وألقى على محتوياته نظرة سريعة وهتف قائلاً: ها هي أنباء جديدة. تقول هذه البرقية التي وردت من فرنسا إنهم وجدوا السيارة الثانية وبها الكابتن دانيالز سكرتير خاص رئيس الوزراء مخدَّراً وموثَق اليدين والقدمين ومكمّم الفم في مزرعة مهجورة. وقد قال دانيالز

إنه لا يذكر مما حدث سوى أنه أحسّ بشيء يوضع على فمه وأنفه من الخلف فحاول المقاومة ولكنه لم يلبث أن غاب عن الوعي، ويبدو أن رجال الشرطة مقتنعون بصحّة أقواله.

- ألم يجدوا شيئاً بالسيارة؟

- نعم، لم يجدوا.

- ألم يجدوا جثة رئيس الوزراء؟ إذن لا يزال هناك أمل. ولكن الأمر يبدو غريباً، فلماذا -بعد أن حاولوا اغتياله في الصباح- يبذلون الآن قصارى جهدهم ويواجهون المتاعب لإبقائه على قيد الحياة؟

فهزّ السيد دودغ رأسه وقال: هناك شيء واحد مؤكّد، هو أنهم مصمّمون على منعه من حضور المؤتمر مهما كلّفهم الأمر.

- إذا كان هناك شيء يستطيع البشر عمله كي يحضر رئيس الوزراء المؤتمر فسأعمله، وكل ما أرجوه هو ألاّ نكون قد تأخّرنا. والآن أيّها السادة أرجوكم أن تسردوا عليّ القصة كلّها من البداية، كذلك أريد أن أعرف كل شيء عن حادث إطلاق الرصاص.

- ليلة أمس كان رئيس الوزراء ومعه الكابتن دانيالز أحد مساعديه.

- هل هو نفس الكابتن دانيالز الذي رافقه في الرحلة إلى فرنسا؟

- نعم. ليلة أمس ذهب رئيس الوزراء وسكرتيره دانيالز إلى

قصر وندسور حيث استقبل الملك رئيس الوزراء، وفي ساعة مبكّرة من صباح اليوم عاد رئيس الوزراء إلى لندن وحدثت محاولة الاغتيال في الطريق.

- صبراً لحظة أرجوك، مَن الكابتن دانيالز هذا؟ هل معك ملفّ خدمته؟

فابتسم اللورد أستير وأجاب: لقد توقّعت أنك ستلقي هذا السؤال. الواقع أننا لا نعرف الكثير عن الكابتن دانيالز، فهو لا ينتمي إلى أسرة معروفة، وقد خدم في الجيش البريطاني وأثبت أنه سكرتير ممتاز يجيد سبع لغات، فاختاره رئيس الوزراء لمرافقته في رحلته إلى فرنسا.

- هل له أقارب في إنكلترا؟

- له عمّتان، تقيم إحداهما في هامبستيد وتقيم الأخرى بالقرب من أسكوت.

- أسكوت؟ بالقرب من وندسور، أليس كذلك؟

- نحن لم نغفل عن هذه النقطة، ولكن البحث لم يوصّلنا إلى نتيجة.

- هل تعتبر الكابتن دانيالز فوق الشبهات؟

فأجاب اللورد أستير وفي صوته شيء من المرارة: لا يا سيد بوارو، ففي هذه الأيام لا يسعني أن أقول عن أيّ إنسان إنه فوق الشبهات.

- حسناً يا سيدي اللورد. والآن، لقد كنت أتصوّر أن رجال

الشرطة يحيطون رئيس الوزراء بحراسة مشدّدة تجعل محاولة الاعتداء عليه أمراً مستحيلاً، فكيف...

فقاطعه اللورد قائلاً: هذا صحيح، كانت هناك سيارة تتبع سيارة رئيس الوزراء عن كثب وبها عدد من رجال الشرطة السرّيين في ملابس مدنية، ولم يكن السيد ماكنزي يعلم شيئاً عن هذا الإجراء الوقائي لأنه شخصياً رجل على جانب عظيم من الشجاعة ولو علم أن حوله حرّاساً لطردهم، ولكن إدارة الشرطة تتخذ هذا الإجراء تلقائياً. والواقع أن السيد مورفي، سائق سيارة رئيس الوزراء، هو أيضاً من رجال المباحث.

- مورفي؟ هذا اسم أيرلندي، أليس كذلك؟

- بلى، إن الرجل أيرلندي.

- من أية منطقة في أيرلندا؟

- أعتقد أنه من منطقة كلير كاونتي.

- أجل. حسناً، أتمم حديثك يا سيدي اللورد.

- بدأ رئيس الوزراء رحلته إلى لندن في سيارة مغلقة ليس بها أحد سواه هو والكابتن دانيالز، وتبعته سيارة الشرطة عن كثب كالعادة، ولكن لسوء الحظ ولأسباب لا تزال مجهولة حدث أن انحرفت سيارة رئيس الوزراء عن الطريق الرئيسي.

- في بقعة ينحني فيها الطريق؟

- نعم، ولكن كيف عرفت ذلك؟

- هذا أمر واضح، استمرّ.

- انحرفت سيارة رئيس الوزراء إذن عن الطريق الرئيسي، ولم تفطن سيارة الشرطة إلى ذلك واستمرّت في طريقها. ومضت سيارة رئيس الوزراء في طريق جانبيّ شبه مهجور إلى أن اعترضها بعض الرجال الملثّمين، وأذهلت المفاجأة سائق السيارة فضغط على الكوابح بقوّة، وأطلّ رئيس الوزراء من نافذة السيارة، وعلى الفور دوّى طلق ناري أعقبه طلق آخر، ومرّت الرصاصة الأولى بجانب خدّ السيد ماكنزي وطاشت الرصاصة الثانية تماماً، وهنا فقط شعر السائق بالخطر فانطلق بالسيارة بكل سرعة، واضطرّ الرجال الملثّمون إلى الوثوب حتى لا تدهمهم السيارة.

فقلت وأنا أرتعد: لقد نجا رئيس الوزراء بأعجوبة!

- ولم يشأ السيد ماكنزي أن يثير ضجّة حول إصابته وقال إنها مجرّد خدش، وتوقّف أمام أحد المستشفيات المحلّية الصغيرة حيث عولج الخدش وضُمّد، وبطبيعة الحال لم يكشف رئيس الوزراء عن شخصيّته وواصل الركب سيره كالخطّة الموضوعة حتى وصل إلى محطة شيرنغ كروس حيث كان في انتظار رئيس الوزراء قطار خاصّ ليذهب به إلى دوفر. وبعد أن روى الكابتن دانيالز لرجال الشرطة ما حدث بإيجاز رحل القطار إلى دوفر، ومن هناك استقلّ رئيس الوزراء إحدى المدمّرات إلى بولونيا، وفي بولونيا وجد في انتظاره سيارة يرفرف العلَم البريطاني على مقدّمتها وليس فيها ما يثير الريبة فركبها.

- هل هذا كل ما عندك من معلومات؟

- نعم.

- ألم تنسَ شيئاً من التفصيلات يا سيدي اللورد؟

- بلى، بلى، هناك أمر يبعث على الدهشة!

- ما هو؟

- سيارة السيد ماكنزي لم تعُدْ إلى بيته بعد أن أوصلته إلى محطة شيرنغ كروس، وكان رجال الشرطة يريدون مقابلة السيد مورفي على وجه السرعة لاستجوابه، فبحثوا عنه في كل مكان ووجدوا السيارة في النهاية في حيّ سوهو أمام مطعم حقير السُّمعة معروف بأنه ملتقى الجواسيس الألمان.

- والسائق؟

- لم يُعثَر له على أثر، لقد اختفى هو أيضاً.

فقال بوارو وهو مستغرق في التفكير: إذن فنحن أمام حادثَي اختفاء، اختفاء رئيس الوزراء في فرنسا، واختفاء السيد مورفي في لندن.

ونظر إلى اللورد أستير فضرب اللورد كفّيه بيأس وقال: كل ما أستطيع أن أقوله يا سيد بوارو هو أنه لو قال لي قائل أمس إن مورفي خائن لسخرت منه.

- واليوم؟

- واليوم لا أعرف ماذا أقول!

فنظر بوارو في ساعته الضخمة مرة أخرى وقال: أظن أيها السادة أنكم ستمنحونني ترخيصاً على بياض بأن أذهب إلى حيث أشاء وكيف أشاء، أليس كذلك؟

- طبعاً، وهناك قطار خاصّ سيغادر لندن إلى دوفر بعد

ساعة وبه فريق آخر من رجال اسكتلنديارد، وسوف يرافقك أحد ضبّاط الجيش وأحد رجال المباحث ليكونا تحت تصرّفك، فهل يلائمك ذلك؟

- تماماً. لكن ثمة سؤال أخير، ما الذي حملكما على الحضور إليّ وأنا مجهول ومغمور في هذه المدينة الكبيرة؟

- شخصية عظيمة جداً لها ثقلها في بلجيكا قد رشّحَتك لهذه المهمّة.

- هل هو صديقي الظريف مدير شرطة بروكسل؟

- بل شخصية أعظم من مدير شرطة بروكسل، شخصية كانت كلمتها في بلجيكا قانوناً، وستكون كذلك مرة أخرى قريباً.

فرفع بوارو يده إلى جبينه في تحية عسكرية وقال: أسأل الله أن يحقق هذه الأمنية، إذن فجلالة ملك بلجيكا لم ينسَني! أيها السادة، إن هيركيول بوارو يضع نفسه تحت تصرّفكم وسيخدمكم بكل إخلاص، وأرجو الله ألاّ يكون الوقت قد فات.

وما إن رحل السيدان العظيمان حتى سألت بوارو: ما رأيك؟

وكان بوارو يعمل بسرعة في إعداد حقيبته الصغيرة، فهزّ رأسه ببطء وأجاب: لا أعرف ماذا أقول؛ فذهني مضطرب.

- أنا أتساءل لماذا يختطفونه حين كان في استطاعتهم التخلّص منه بضربة على أُمّ رأسه!

- لا شك أن اختطافه يخدم أغراضهم أكثر من قتله.

- ولكن لماذا؟

- الشكّ والبلبلة يولّدان الذعر، وذلك هو السبب، فلو أن رئيس الوزراء قد مات لكان موته كارثة فادحة، ولكنها كارثة من شأنها أن تخلق موقفاً يتعيّن مواجهته، أمّا الآن فكل شيء سيصاب بالشلل، سيتساءل الناس هل سيعود رئيس الوزراء أم لن يعود وهل هو حي أم ميّت. لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أن ينجز أمراً قبل أن يحسم الشكّ باليقين. وكما قلت لك إن الشك والبلبلة يولدان الذعر، وهذا ما يريده الألمان. أمّا اختطافه وإخفاؤه في مكان سرّي فهذا يتيح لمختطفيه فرصة المساومة عليه.

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا حاولوا اغتياله في البداية؟

- ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه أو أن أجد له تفسيراً. لقد دبّروا أمر اختطافه تدبيراً بارعاً محكماً، ومع ذلك كادوا أن يفسدوا الموضوع كلّه بتلك المحاولة المأساوية التي لا مثيل لها إلا في الأفلام السينمائية، رجال ملثّمون يعترضون سيارة رئيس الوزراء على بُعد عشرين كيلومتراً من لندن، مَن الذي يصدّق كلاماً كهذا؟!

- ربما كانت هناك محاولتان منفصلتان لا صلة لإحداهما بالأخرى.

- لا؛ فستكون مصادفة شبه مستحيلة، ثم مَن الخائن؟ لا بدّ أن يكون هناك خائن ولو في المحاولة الأولى على الأقلّ. فمَن كان الخائن؟ دانيالز أم مورفي؟ لا بدّ أن يكون الخائن أحدهما، وإلاّ فلماذا انحرفَت السيارة عن الطريق الرئيسي؟

نحن لا نستطيع أن نفترض أن رئيس الوزراء قد اشترك في تدبير محاولة اغتياله! فهل انحرف مورفي بالسيارة من تلقاء نفسه أم أنه تلقّى أمراً بذلك من دانيالز؟

- أكبر الظن أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه.

- وأنا أرجّح ذلك؛ إذ لو كان دانيالز هو الذي أصدر الأمر لسَمِعه رئيس الوزراء وطلب معرفة السبب. هناك أسئلة كثيرة يمكن أن تثار في هذا الموضوع وكل منها يتعارض مع الآخر، فإذا كان مورفي رجلاً أميناً فلماذا انحرف عن الطريق؟ وإذا كان خائناً فلماذا انطلق بالسيارة بسرعة بعد الطلقتين الأوليين فأنقذ حياة رئيس الوزراء؟ ولماذا ينتظر حتى يطلق الرجال الملثمون مزيداً من الرصاص؟ وإذا كان رجلاً أميناً فلماذا يغادر محطة شيرنغ كروس فوراً ويذهب مباشرة إلى مكان معروف بأنه ملتقى الجواسيس الألمان؟

- حقاً هي قضية معقّدة!

- دعنا ننظر إليها نظرة واقعية ونفحص ما لكل من الرجلين وما عليه، فإذا بدأنا بمورفي وجدنا عليه عدة أمور، أوّلها أن انحرافه بالسيارة عن الطريق الرئيسي يدعو إلى الريبة، وثانيها أنه أيرلندي، والأيرلنديون يناضلون الإنكليز منذ ثلاثة قرون من أجل حرّيتهم واستقلالهم، وثالثها أنه اختفى بطريقة لها مغزاها. أمّا ما له فهو أيضاً عدّة أمور، أوّلها أنه انطلق بالسيارة وكاد أن يدهم الرجال الملثّمين فأنقذ بذلك حياة رئيس الوزراء، وثانيها أنه يعمل في اسكتلنديارد، وثالثها أن العمل الذي كُلّف به يدلّ على أنه موضع ثقة.

وسكت بوارو لحظة أردف بعدها قائلاً: أمّا دانيالز فما يُحسَب عليه أنه لا ينتمي إلى أسلاف معروفين، وأنه يعرف لغات كثيرة وهو ما لا يمكن أن يقال عن الإنكليزي الصميم. أما ما يُحسَب له فهو أنه وُجد موثَق اليدين والقدمين مكمّم الفم مما يدلّ على أنه ليس شريكاً في الجريمة.

- ربما كَمّم وأوثق نفسه ليُبعِد الشبهات عنه.

فهزّ بوارو رأسه سلباً وأجاب: الشرطة الفرنسية لا يفوتها أمر كهذا، وإذا كان دانيالز قد اشترك في خطف رئيس الوزراء بنجاح فلماذا تركه زملاؤه خلفهم؟

- ربما ليضلّل رجال الشرطة.

- ولماذا يضللهم؟ لقد قرّر أن شيئاً وُضع على فمه وأنفه وأنه لا يذكر غير ذلك.

فنظرت إلى ساعتي وقلت: أظن أنه يحسن بنا الآن أن نذهب إلى المحطة، ومن يدري؟ فلعلك تجد مزيداً من الأدلّة والقرائن في فرنسا.

- ربما، ولكن الشيء الذي لا يمكنني تصديقه هو أنه لم يُكتشَف مكان رئيس الوزراء إلى الآن في هذه المساحة المحدودة التي تحُول فيها صعوبات كثيرة دون إمكان إخفائه. وإذا كان رجال الجيش والشرطة في الدولتين لم يستطيعوا العثور عليه فكيف سأستطيع أنا؟!

* * *

في محطة شيرنغ كروس وجدنا السيد دودغ في انتظارنا ومعه رجلان قدّمهما إلى بوارو بقوله: هذا هو المفتش بارنز من اسكتلنديارد، وهذا هو الميجور نورمان من الشرطة الحربية، وهما يضعان أنفسهما تحت تصرّفك. أتمنى لك حظاً سعيداً. القضية سيّئة، ولكني لم أفقد الأمل. يجب أن أذهب الآن.

وانصرف بسرعة. وعلى رصيف المحطة وقع بصري على جماعة من الناس عرفت من بينهم رجلاً قصير القامة، كان صديقاً حميماً لبوارو، ذلك الرجل هو المفتش جاب المعروف بأنه من أنشط رجال اسكتلنديارد، وكان وقتئذٍ يتحدّث إلى زميل له طويل القامة أشقر الشعر.

ورآنا جاب وأقبل مع زميله لتحية بوارو وعلى شفتيه ابتسامة عريضة قائلاً: قيل لي إنك ستشترك معنا في هذه القضية. الحقّ أن الحادث دُبّر بذكاء وظفر مرتكبوه بضالّتهم، ولكني لا أعتقد أنهم سيستطيعون إخفاءه مدة طويلة؛ فرجالنا يقومون بتمشيط فرنسا من أقصاها إلى أقصاها، وكذلك كانت تفعل الشرطة الفرنسية. أشعر بأن الأمر لن يستغرق سوى بضع ساعات.

فقال المفتش الطويل القامة: ذلك إذا كان رئيس الوزراء لا يزال على قيد الحياة.

فقال جاب: هذا صحيح، ولكني أشعر أيضاً بأنه لا يزال حيّاً.

فأومأ بوارو برأسه موافقاً وقال: أجل، هو حيّ، ولكن هل يمكن العثور عليه في الوقت المناسب؟ أنا أيضاً أعتقد بأنه لا يمكن إخفاؤه مدّة طويلة.

وسمعنا صفير القطار فأسرعنا إلى عربة النوم، وما هي إلا لحظات حتى غادر القطار المحطة. كانت رحلة عجيبة، فقد اجتمع رجال اسكتلنديارد معاً، وبسطوا أمامهم خرائط لشمال فرنسا وراحوا يتعقّبون عليها بأصابعهم الطرق والجسور والقرى ويدلي كل منهم برأيه في حين جلس بوارو صامتاً وفي عينيه نظرة طفل حائر، أمّا أنا فقد تحدّثت إلى الميجور نورمان ووجدته رجلاً ظريفاً.

ولما وصلنا إلى دوفر كان سلوك بوارو مثيراً للدهشة، فقد ضغط على ساعدي بيأس ونحن ننتقل إلى الباخرة وتمتم قائلاً: يا إلهي! هذا مخيف!

فقلت له: تشجّع يا بوارو، أنا واثق من أنك ستنجح وتجده.

- لا يا صديقي، أنت لم تفهمني، أنا أتكلّم عن البحر والعواصف ودوار البحر.

وتحرّكَت الباخرة فتأوّه بوارو وأغمض عينيه، فقلت له: إن مع الميجور نورمان خريطة لشمال فرنسا هل تريد دراستها؟

فهزّ بوارو رأسه بضجر وأجاب: لا، لا، دعني يا صديقي، يجب أن يكون هناك انسجام بين المعدة والعقل كي يستطيع الإنسان أن يفكّر تفكيراً سليماً. وكيف يأتي الانسجام المنشود مع دوار البحر؟! لقد وجد الأستاذ لافرجيه طريقة رياضية لمقاومة دوار البحر، وتتلخّص هذه الطريقة في أن يتنفس الإنسان ببطء وعمق مع تحريك الرأس من اليمين إلى اليسار وبالعكس.

فتركته يمارس تلك الرياضة وصعدت إلى سطح الباخرة،

ولما دخلنا ببطء ميناء بولونيا رأيت بوارو مقبلاً وهو يمشي بنشاط وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وقال لي بهمس: لقد أحرزت طريقة الأستاذ لافرجيه نجاحاً عظيماً.

وكان جاب لا يزال يشير إلى الخريطة ويتحدّث إلى زملائه قائلاً: لقد بدأت السيارة رحلتها من بولونيا من هنا، وأنا أعتقد أن الأشقياء قاموا بعد قليل بنقل رئيس الوزراء إلى سيارة أخرى.

فقال زميله الطويل القامة: وأنا أراهن أنهم نقلوه إلى إحدى البواخر.

فهزّ جاب رأسه وقال: لقد صدرت الأوامر فوراً بإغلاق جميع الموانئ.

وكانت الشمس قد أشرقت عندما غادرنا الباخرة فقال الميجور نورمان يحدّث بوارو: إن إحدى سيارات الجيش في انتظارك هنا يا سيدي.

- شكراً لك، ولكني لا أنوي مغادرة بولونيا في الوقت الحاضر.

- ماذا؟!

- سنذهب إلى هذا الفندق القريب من رصيف الميناء.

وقرن القول بالفعل وطلب من صاحب الفندق غرفة خاصة وأجيب على طلبه، وتبعناه نحن الثلاثة إلى الفندق، فرمقنا بنظرة سريعة وقال: لا شك أنكم تقولون لأنفسكم الآن: ما هكذا يتصرّف الشرطي السرّي الناجح؛ فالشرطي السرّي يجب أن يكون ممتلئاً نشاطاً وحيوية فيتحرّك هنا وهناك ويتمدّد على

الأرض ويلاحظ بصمات إطارات السيارة بعدسة مكبّرة ويجمع بقايا لفافات التبغ وأعواد الثقاب... هذا ما تقولونه لأنفسكم الآن، أليس كذلك؟

ونظر إلينا بتحدٍّ واستطرد قائلاً: ولكني، أنا هيركيول بوارو، أقول لكم إن الأمر ليس كذلك؛ فالأدلّة موجودة هنا (وأشار إلى جبينه بإصبعه) ولم تكن هناك ضرورة لأن أغادر لندن. كان يكفي أن أجلس هادئاً في شقّتي وأدَع الخلايا الرمادية هنا (وأشار إلى جبينه مرة أخرى) تؤدّي واجبها بصمت وهدوء إلى أن تحين اللحظة التي أثب فيها من مقعدي فجأة وأطلب خريطة وأضع إصبعي على مكان فيها وأقول: رئيس الوزراء هنا، ويكون فعلاً هنا. نحن نستطيع بالتفكير والمنطق أن نفعل الكثير، وقد كان قدومنا الفجائي إلى فرنسا غلطة كبيرة، ولكني من الآن سأعمل بالطريقة السليمة، بعقلي، فأرجوكم أيها الأصدقاء أن تلزموا الصمت.

* * *

وقضى بوارو خمس أو ستّ ساعات جالساً لا يتحرّك، يرمش بأهدابه كالقطّ وتتألّق عيناه الخضروان بين الفينة والفينة فتزدادان اخضراراً، إلى أن شعرنا أخيراً بالضجر والضيق.

وأخيراً غادرت مقعدي واقتربت من النافذة دون أن أحدث صوتاً. لقد خُيّل إليّ أن المسألة أصبحت مهزلة وشعرت بالرثاء لصديقي، إذا كان لا بدّ من الفشل فليكن فشلاً مقروناً بالوقار. وفجأة صاح بوارو: هلمّوا بنا أيها الأصدقاء.

فنظرت إليه وكان لامع العينين منتفخ الأوداج، فقال: لقد

كنت مغفّلاً أيها الأصدقاء، ولكني بدأت أرى نور النهار.

فأسرع الميجور نورمان إلى الباب وهو يقول: سأصدر أمري بإعداد السيارة.

- لا ضرورة لذلك فلن أستخدمها، وأحمد الله أن العاصفة قد هدأت.

- هل تعني أنك ستسير على قدميك يا سيدي؟

- لا يا صديقي، فأنا أفضّل عبور بحر المانش بقارب.

- عبور بحر المانش؟!

- نعم. العمل المنهجي يفرض علينا أن نبدأ من البداية، وقد بدأت هذه القضية في إنكلترا، ولذلك يجب أن نعود إلى إنكلترا.

* * *

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة عندما وقفنا مرة أخرى على رصيف محطة شيرنغ كروس، وقد صمّ بوارو أذنيه عن جميع أسئلتنا واستفساراتنا، وقال المرة تلو المرة إن البدء من البداية لا يُعَدّ مضيَعة للوقت ولكنه الطريقة الوحيدة المثلى.

وقد تحدّث بوارو طويلاً بصوت خافت مع الميجور نورمان خلال رحلة العودة، ولما وصلنا إلى دوفر أرسل نورمان برقية مطوّلة. وقد ساعدتنا التصاريح الخاصة التي يحملها نورمان على اجتياز المسافات في وقت قياسي، وعندما وصلنا إلى لندن وجدنا سيارة فارغة من سيارات الشرطة في انتظارنا وبها بعض

أشخاص في ثياب مدنية، فاقترب منا أحدهم وقدّم إلى بوارو ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة، فنظرت إلى بوارو متسائلاً فأجابني: هذه قائمة بالمستشفيات الموجودة في ضواحي لندن، وقد أرسلت من دوفر في طلبها.

ومررنا بضواحي همرسميث وشزويك وبرنتفورد ثم اجتزنا وندسور إلى أستور، وشعرت بقلبي يثِب بين جنبيّ؛ فللكابتن دانيالز عمّة تقيم في أسكوت. نحن إذن نجدّ في أثر دانيالز وليس في أثر مورفي!

وتوقّفَت بنا السيارة أمام منزل صغير أنيق، فدقّ بوارو جرس الباب ورأيت سحابة قلق وحيرة تعبر وجهه، فقد كان من الواضح أنه غير راضٍ. وفُتح الباب فدخل بوارو وغاب لحظة ثم عاد ووثب إلى السيارة وهو يهزّ رأسه. وبدأت آمالي تتبخّر!

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة، وحتى على فرض أنه وجد الأدلّة التي تدين دانيالز فما قيمتها إذا لم يستطع معرفة المكان الذي أُخفي فيه رئيس الوزراء؟

ولم نعُدْ إلى لندن مباشرة بل انحرفنا عن الطريق الرئيسي أكثر من مرة، وتوقّفنا أمام أبنية عرفت أنها مستشفيات ريفية، وكان بوارو يقضي في كل منها بضع دقائق. لكنني لاحظت مع مرور الوقت أنه استردّ طمأنينته وثقته بنفسه. وهمس بوارو في أذن نورمان ببضع كلمات فأجابه الثاني: نعم، إذا انحرفت يساراً فسنجدهم ينتظرون بجوار الجسر.

وانحرفَت بنا السيارة يساراً، ووجدنا سيارة أخرى تنتظر على جانب الطريق وبها رجلان في ثياب مدنية، فوثب بوارو

من السيارة وتحدّث إليهما. ثم واصلنا السير نحو الشمال وتبعتنا السيارة الأخرى، ووضح لنا بعد قليل أننا في طريقنا نحو ضواحي لندن الشمالية، وتوقّفَت بنا السيارة أخيراً أمام بيت مرتفع ينهض بعيداً عن الطريق العام.

وثبت أنا ونورمان من السيارة في حين ذهب بوارو وأحد الشرطيين إلى باب البيت، وقرع بوارو الجرس ففتحت الباب وصيفة شابّة فقال لها الشرطي: أنا ضابط شرطة ومعي إذن بتفتيش هذا البيت.

فأفلتت من فم الفتاة صيحة خافتة في حين ظهرت خلفها سيّدة طويلة القامة جميلة في العقد الثالث من عمرها صاحت السيدة بالوصيفة قائلة: أغلقي الباب يا أدميث، أعتقد أنهم لصوص.

ولكن بوارو دَسّ قدمه أمام الباب وأطلق صفيراً ثاقباً فهرول إليه رجال الشرطة السرّية الآخرون، وتدفّقوا داخل المنزل وأغلقوا الباب خلفهم. ووقفت أنا ونورمان نتميّز غيظاً لأننا لم نستطع الاشتراك في الهجوم. وبعد نحو خمس دقائق فُتح باب البيت وخرج منه رجال الشرطة ومعهم ثلاثة من الأسرى، رجلان وامرأة، وقد وُضعَت المرأة وأحد الرجلين في السيارة الخلفية، أمّا الرجل الآخر فقد أجلسه بوارو بنفسه في سيارتنا وقال يحدّثني: هل عرفت هذا السيد يا هاستنغز؟ إذن دعني أقدّمه لك، هذا هو السيد مورفي.

فذهلت ونظرت إليه وأنا مفتوح الفم من المفاجأة. ولم يضع بوارو الأصفاد في يديه، ولكني لم أتصوّر أنه يمكن أن

يحاول الفرار، فقد جلس هادئاً وراح ينظر أمامه كالمذهول. وما أشدّ دهشتي حين لاحظت أن السيارة لا تزال تطوي بنا الأرض في الطريق نحو الشمال لا إلى لندن! ثم أبطأت السيارة فجأة ولاحظت أننا نقترب من مطار هندون، فعرفت على الفور خطة بوارو وأدركت أنه يعزم السفر بالطائرة إلى فرنسا. كانت الخطة سليمة، ولكن كان أفضل منها أن يستعيض عن الرحلة ببرقية عاجلة يبعث بها إلى فرنسا؛ فالوقت كان أهمّ شيء.

وما إن أشرفنا على المطار حتى وثب نورمان من السيارة، وحلّ محلّه رجل آخر في ثياب مدنية وراح يتحدّث إلى بوارو بسرعة، ثم وثب من السيارة وابتعد، وحينئذ قلت محدّثاً بوارو: دعني أهنّئك أيها الصديق، هل باحوا لك بمكان رئيس الوزراء؟ من رأيي أن ترسل إلى فرنسا فوراً لأنك ستصل متأخّراً إذا ذهبت بنفسك.

فحملق بوارو في وجهي لحظة ثم قال: من سوء الحظ يا صديقي أن هناك أشياء لا يمكن إرسالها برقيّاً.

وفي تلك اللحظة عاد نورمان ومعه ضابط شاب من سلاح الطيران، وقال يحدّث بوارو: هذا هو الكابتن ليول الذي سيطير بك إلى فرنسا، وهو على استعداد لأن يقلع بطائرته فوراً.

فقال الطيار الشابّ: يجب أن ترتدي ثوباً سميكاً يا سيدي، أنا على استعداد لأن أعيرك معطفاً إذا شئت.

فنظر بوارو في ساعته وقال لنفسه: نعم، لا يزال لدينا الوقت الكافي.

ثم قال وهو يحني قامته للطيار الشاب في أدب: أشكرك،

ولكني لست أنا الذي سأسافر، فالذي سيسافر هو هذا السيد.

وتنحّى جانباً ليفسح طريقاً لشخص آخر خرج من الظلام، كان ذلك الشخص الآخر هو الأسير الثاني الذي وُضع مع المرأة في السيارة الأخرى. وعندما سقط الضوء على وجه ذلك الأسير أفلتت من فمي صيحة دهشة؛ فذلك الأسير لم يكن سوى رئيس الوزراء!

وصحتُ ببوارو ونحن في طريقنا إلى لندن بالسيارة: قل لي بالله كيف استطاعوا إعادة رئيس الوزراء سرّاً إلى إنكلترا؟

فأجاب بوارو: لم تكن هناك ضرورة لإعادته سرّاً؛ فهو لم يغادر إنكلترا أصلاً. لقد اختطفوه وهو في طريقه من وندسور إلى لندن.

- ماذا؟!

- سأوضّح لك الأمر. لقد كان رئيس الوزراء في سيارته وسكرتيره بجواره عندما وُضع على وجهه فجأة منديل مبلّل بالكلوروفورم.

- ولكن من الذي وضعه؟

- وضعه اللغوي الماهر الكابتن دانيالز، وعندما فقدَ رئيس الوزراء وعيَه تحدّث دانيالز إلى مورفي وأمَره أن ينحرف بالسيارة إلى اليمين وأطاعه مورفي دون أن يعلم بما حدث. وعلى بُعد بضعة أمتار كانت تقف في عرض الطريق سيارة كبيرة يبدو أنها معطّلة، فأشار سائقها إلى مورفي بأن يتوقّف، فأبطأ مورفي واقترب منه السائق الآخر، وبسرعة انحنى دانيالز إلى الأمام

ووضع على وجه مورفي منديلاً مبللاً بالمخدّر، وبعد لحظات نُقل رئيس الوزراء ومورفي إلى السيارة الكبيرة، وحلّ محلّهما شخصان آخران كانا في السيارة الكبيرة.

- مستحيل!

- لماذا؟ ألم ترَ قَطّ في الملاهي الليلية فنانين يقلّدون العظماء تقليداً يبعث على الدهشة؟ ليس هناك أيسر من تقليد الشخصيات العامّة. أمّا الشخص الذي قام بدور مورفي فإن أحداً لم يكن ليلقي إليه بالاً، خاصة وأنه كان من المتعذّر أن يتوارى نهائياً بعد أن يوصل رئيس الوزراء المزيّف إلى محطة شيرنغ كروس، وذلك بأن يذهب إلى ملتقى زملائه الجواسيس في حيّ سوعو بصفته مورفي ثم يغادر المكان بصفة أخرى وبشخصية مختلفة. وهكذا يعتقد رجال الشرطة أن مورفي الحقيقي قد اختفى في ظروف تثير الريبة حوله.

- ولكن الرجل الذي قام بدور رئيس الوزراء قد رآه كثيرون.

- أجل، ولكن لم يرَه أحد من أعوانه أو الذين يعرفونه معرفة شخصية، وقد حرص دانيالز على أن يحجبه ويمنع الناس من الاتصال به، أضف إلى ذلك أن وجهه كان معصوباً بزعم أن الرصاصة التي أطلقت عليه قد خدشت خدّه، ولو لاحظ أحد أيّ تغيير في سلوكه لعزا ذلك إلى الصدمة العصبية التي أصابته نتيجة محاولة اغتياله، والمعروف عن السيد ماكنزي رئيس الوزراء أن حباله الصوتية ضعيفة ولذلك لا يتكلّم كثيراً.

وسكت بوارو برهة ثم قال: كانت الخدعة متقَنة جداً،

وكان من السهل أن تستمرّ حتى حدود فرنسا، ولكن كان من المستحيل أن تستمرّ إلى أبعد من ذلك. وهكذا اختفى رئيس الوزراء عقب وصوله إلى فرنسا، وأسرع رجال الشرطة الإنكليزية إلى عبور المانش للبحث عنه ولم يفكّر أحد في بحث تفصيلات حادث الاعتداء الأوّل. وإمعاناً في الخداع والتمويه بأن حادث الاختطاف قد وقع في فرنسا كمّم أحدُهم دانيالز وخدَّره وأوثقه بالحبال بطريقة لا تدَع سبيلاً للارتياب في أمره.

- وماذا عن الرجل الذي قام بدور رئيس الوزراء؟

- لقد تخلّص من تنكّره، ومن المحتمل أن يُقبَض عليه هو وزميله الذي قام بدور السائق للاشتباه، ولكن من المتعذّر إثبات الدور الذي قاما به في المأساة، ولذلك أتوقّع أن تطلق المحكمة سراحهما لعدم كفاية الأدلّة.

- ورئيس الوزراء الحقيقي؟

- قد سِيق هو ومورفي أسيرَين إلى منزل السيدة إيفرارد في هامبستيد، وتزعم السيدة إيفرارد أنها عمّة دانيالز ولكن اسمها الحقيقي هوبرتا ايبنتال الجاسوسة الألمانية التي تبحث عنها الشرطة منذ وقت طويل، فهي هدية ثمينة أقدّمها إليهم. والواقع أن المؤامرة كانت متناهية في البراعة، ولكن الذين خططوا لها لم يحسبوا حساباً لبراعة هيركيول بوارو.

وأعتقد أنه كان من حق صديقي بوارو فعلاً أن يفخر بنفسه. وسألته: متى بدأتَ ترى حقائق القضية؟

- منذ البداية؛ فأنا لم أهضم حكاية محاولة الاغتيال، وعندما وجدت أن نتيجة المحاولة كانت سَفَر رئيس الوزراء إلى

فرنسا وهو معصوب الوجه ظهرَت لي الحقيقة. وعندما مررت بجميع مستشفيات المنطقة وعلمت أنها لم تعالج ولم تضمّد في صباح ذلك اليوم وجه رجل خدشَته رصاصة، حينها تحقّقَت ظنوني وأيقنت أنني لم أفكّر تفكيراً سليماً، وكان الباقي بعد ذلك لعب أطفال.

وفي صباح اليوم التالي أطلعني بوارو على برقية وردَت إليه في التوّ وليس عليها توقيع، وقد تضمنت هذه الكلمات: «وصلت في الوقت المحدّد تماماً».

وفي المساء نشرت الصحف وصفاً مفصّلاً لمؤتمر الحلفاء في فرساي وأبرزت خطاب السيد ماكنزي، وقالت إنه ترك أعمق الأثر في نفوس الأعضاء.

* * *

السّوسَن الأصفر

مدّ هيركيول بوارو قدمَيه إلى ناحية المدفأة الكهربائية الموضوعة في داخل الحائط راضياً قرير العين وهو يغمغم قائلاً: مدفأة الفحم شيء عتيق مشوّه غير مضمون، وهي لا تمتاز بالتناسق وحسن المظهر.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف، فنهض وهو يلقي نظرة على ساعته. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة والنصف ليلاً، فتساءل في نفسه عمّن يطلبه في مثل ذلك الوقت المتأخر. هو لم يستبعد أن تكون مكالمة خاطئة، لكنه غمغم وهو يبتسم تفكّهاً: وقد تكون عن مليونير صاحب جريدة وُجد ميتاً في قاعة المكتبة بمنزله الريفي وقد وُضعت في يده اليسرى زهرة أوركيد وشُبكت في صدره صفحة انتزعت من كتاب كان يقرؤه عن فنّ الطهي!

ورفع بوارو السماعة وما زالت الابتسامة تداعب شفتيه، وفي الحال بادره صوت المتكلّم. كان صوت امرأة ناعم به بحّة تخالطه رنّة خوف واستنجاد. قالت المتكلّمة: هل أنت السيد هيركيول بوارو؟ هل أنت السيد هيركيول بوارو؟

- نعم، أنا هيركيول بوارو.

- سيد بوارو، أيمكنك أن تأتي حالاً؟ حالاً! أنا في خطر، في خطر شديد! أنا متأكّدة...

فقال بوارو بحدّة: من أنت؟ ومن أين تتكلّمين؟

فجاءه الصوت أكثر خفوتاً ولكن أشدّ إلحاحاً: حالاً... المسألة حياة أو موت! في غاردان دي سيتي، الطاولة ذات السوسن الأصفر... حالاً!

وتوقّف الصوت، وتلَتْه شهقة غريبة ثم انقطع نهائياً. ووضع هيركيول بوارو السماعة وقد نمّ وجهه عن الحيرة وغمغم بشفتيه قائلاً: هذا أمر غريب جداً!

* * *

أسرع لويجي البدين في مدخل مطعم غاردان دي سيتي ليستقبل القادم قائلاً: مرحباً يا سيد بوارو، هل تريد طاولة؟

- لا، لا يا عزيزي لويجي، أنا أبحث هنا عن بعض الأصدقاء. سأبحث بنفسي، ربما لم يصلوا بعد. نعم، هناك تلك الطاولة في الركن التي عليها أزهار السوسن. بالمناسبة، سؤال صغير (إذا لم يكن من الفضول): كل الطاولات هنا عليها أزهار الزنبق الوردية، فلماذا توجد على هذه الطاولة وحدها أزهار السوسن الأصفر؟

فهز لويجي كتفيه قائلاً: بالطلب يا سيدي... طلب خاصّ؛ وهذه لا شك هي الأزهار المفضّلة عند إحدى السيدات. هذه الطاولة محجوزة للسيد بارتون راسل، وهو أمريكي واسع الغنى.

- لا بدّ للإنسان أن يراعي ميول السيّدات، أليس كذلك يا لويجي؟

فأجاب لويجي: لقد قُلتَها يا سيدي.

- أرى عند تلك الطاولة أحد معارفي، لا بدّ أن أذهب وأتكلّم معه.

اتجه بوارو نحو الطاولة، وكانت مخصّصة لستّة أشخاص، ولكن لم يكن يجلس إليها في تلك اللحظة سوى شخص واحد هو شابّ بدا شارداً واجماً. لم يكن هو الشخص الذي كان بوارو يتوقّع أن يراه، وبدا من الاستحالة أن يربط فكرة الخطر أو المأساة بالمجموعة التي كان توني تشابل واحداً منها.

وتوقف بوارو عند الطاولة قائلاً: يا إلهي، صديقي أنتوني تشابل!

- يا للعجب! بوارو الشرطي السرّي الشهير؟

هتف الشاب بهذه العبارة وقد تملّكه أشدّ العجب، ثم أردف قائلاً: اسمي ليس أنتوني يا عزيزي، إنه توني للأصدقاء.

وجذب مقعداً وقال: تعالَ اجلس معي لنتناقش في الجرائم. ولكن ماذا تفعل في هذا المكان المخصّص للطعام والشراب والموسيقى يا عزيزي بوارو؟ ليست عندنا جثث هنا... بالتأكيد لا توجد جثة واحدة نقدّمها لك!

- يبدو أنك في غاية المرح يا صديقي.

- المرح؟ أنا غارق في التعاسة سابح في بحار الأشجان. قل لي: هل تسمع ذلك اللحن الذي يعزفونه؟ هل تعرفه؟

فألقى بوارو ردّه بحذر قائلاً: ربما كان لحناً عن فتاتك التي هجرتك.

فأجاب الشاب: تخمين لا بأس به، ولكنه تخمين خاطئ. هذا لحن الأغنية التي تقول: «لا شيء مثل الحب فيه عذابك».

- حسناً؟

فقال توني تشابل بكآبة: هذا هو لحني المفضّل، وهذا مطمعي المفضّل وفرقتي الموسيقية المفضّلة، لكن محبوبتي المفضّلة ذهبت ترقص على أنغام اللحن مع شخص غيري!

فقال بوارو: وهذا سبب غمّك؟

- بالضبط، لقد تشاحنت مع بولين واشتدّ الخلاف بيننا. قلت لها: "سأشرح لكِ كل شيء يا حبيبتي"، ولكنها أغرقتني في بحر من العتاب! سأقتل نفسي بالسمّ.

فغمغم بوارو: بولين؟

- بولين ويذربي، الأخت الصغرى لزوجة بارتون راسل، وهي شابّة جميلة غنية لحدّ مخيف. لقد أقام بارتون راسل حفلة الليلة، هل تعرفه؟ إنه رجل أعمال كبير مملوء بالحيوية، وكانت زوجته أختَ بولين.

- ومَن الآخرون في الحفلة؟

- سوف تقابلهم بعد دقيقة عندما تتوقّف الموسيقى. لولا فالديز من أمريكا الجنوبية، وهي الراقصة التي تشترك في الاستعراض الجديد بمسرح متروبول. وستيفن كارتر، هل تعرفه؟ إنه أحد رجال السلك السياسي، وهو رجل متكلّم جداً... آه، ها هم قادمون.

ونهض بوارو، وتمّ تقديمه إلى بارتون راسل وستيفن كارتر والسيدة لولا فالديز، ثم إلى بولين ويذربي، وكانت شقراء ساحرة النظرات في ريعان الشباب.

هتف بارتون راسل: ماذا؟! هل هذا السيد هيركيول بوارو العظيم؟ أنا مسرور بلقائك يا سيدي. هلاّ تفضلت بالجلوس إلينا؟ اللهم إلا إذا...؟

فقاطعه توني تشابل قائلاً: لديه موعد مع جثة كما أظن! أم هي قضية مليونير مخطوف؟ أم قضية ماسَة المهراجا النفيسة؟

- هل تظن يا صديقي أنني لا أكون مرة بعيداً عن القضايا والواجبات؟ ألا يمكنني أن أبحث عن التسلية والترفيه ولو مرة؟

- ربما كان عندك موعد مع كارتر هنا. آخر أخبار جنيف: تعقّدَ الموقف الدولي، الوثائق المسروقة لا بدّ من إيجادها وإلا أُعلنَت الحرب غداً!

وعندئذ قالت له بولين ويذربي بلهجة لاذعة: هل لا بدّ أن تكون بمثل هذه الحماقة التامّة يا توني؟

- آسف يا بولين.

وعاد توني تشابل إلى صمته المكتئب، فقال بوارو: ما أشدّ قسوتك يا آنسة!

- أنا أكره الناس الذين يُظهرون الحماقة طول الوقت.

فقال توني: إذن لا بدّ من الحذر، لا بدّ أن أتكلّم في الأمور

الجادّة فقط! لا، آسف يا سيد بوارو، لم أكن أقصدك.

والتفتت إليه بوجه باسم تسأله: هل أنت فعلاً من نوع شيرلوك هولمز وتقوم باستنتاجات عجيبة؟

- الاستنتاجات؟ إنها ليست بهذه السهولة في الحياة الواقعية، لكن هل لي أن أجرّب؟ إذن فأنا أستنتج أن أزهار السوسن الصفراء هذه من أزهارك المفضّلة.

- خطأ تماماً يا سيد بوارو؛ فأنا أفضّل زنبق الوادي أو الورد.

فتنهّد بوارو قائلاً: هذا فشل! سوف أجرّب مرة ثانية. هل طلبتِ شخصاً بالهاتف هذه الليلة منذ فترة غير طويلة؟

فضحكَت بولين وصفّقت بيديها قائلة: صحيح جداً.

- بعد فترة طويلة من وصولك إلى هنا؟

- صحيح مرة ثانية، لقد تكلّمت بالهاتف في الدقيقة التي دخلتَ فيها.

- ليس هذا شيئاً حسناً. هل تكلّمتِ هاتفياً قبل مجيئك إلى هذه المائدة؟

- نعم.

- هذا شيء رديء بالتأكيد!

- أعتقد أن هذه براعة منك، كيف عرفت أنني تكلّمت بالهاتف؟

- هذا يا آنسة هو سرّ المهنة عند الشرطي السرّي العظيم.

والشخص الذي تكلّمت معه هاتفياً هل اسمه يبدأ بحرف الباء أو ربما بحرف الهاء؟

فضحكت بولين قائلة: خطأ تماماً؛ لقد تكلّمت مع خادمتي كي ترسل بالبريد بعض خطابات مهمّة جداً لم أرسلها في وقتها، واسمها لويز.

- هذا من دواعي ارتباكي!

وبدأت الموسيقى تعزف من جديد، فقال توني: ما رأيك في الرقص يا بولين؟

- لا أظن أنني أريد أن أرقص ثانية بهذه السرعة يا توني.

قال توني بمرارة موجّهاً حديثه للدنيا كلّها: أليس هذا أسوأ شيء؟!

قال بارتون راسل بلهجة قوية: بولين، بصفتي زوجِ أختك والوصيّ عليك أطلب منك الانتقال معي بالقوّة إلى الحلَبة. هذه رقصة الفالتز، ورقصة الفالتز هي الوحيدة التي أجيدها.

- طبعاً يا بارتون، لنذهب إلى الحلَبة.

- هذا ظُرف منك يا بولين.

وذهبا معاً، فأمال توني مقعده إلى الخلف ثم نظر إلى ستيفن كارتر قائلاً: يا لك من شخص متكلّم يا كارتر! تخلق جوّاً من المرح بأحاديثك، أليس كذلك؟

- لست أعرف ماذا تقصد يا تشابل.

وهزّ ستيفن كارتر كتفيه ثم قال: معذرة، لا بدّ أن أتكلّم

مع شخص كنت أعرفه من أيام الكلية في إيتون.

ونهض ستيفن كارتر وسار إلى مائدة تبعد بضعة أماكن، فقال توني مكتئباً: ليذهب خرّيجو كلية إيتون إلى جهنّم جميعاً!

وفي خلال ذلك كان بوارو مقبلاً على لولا فالديز الجالسة بجواره يجاملها، فغمغم يقول: ترى ما الأزهار المفضّلة عند الآنسة؟

فقالت لولا بدهاء: ما الذي تريد أن تعرفه؟

- يا آنسة، إذا أردت أن أرسل بعض الأزهار لسيدة فيهمّني أن تكون من نوع الأزهار التي تحبّها.

- هذا ظُرف منك يا سيد بوارو، سوف أخبرك، أنا أعشق القرنفل الكبير الأحمر الداكن أو الورد الأحمر الداكن.

- رائع! أنتِ إذن لا تحبّين الأزهار الصفراء أو السوسن الأصفر؟

- الأزهار الصفراء؟ لا، إنها لا تتفق مع مزاجي.

- يا للحكمة! أخبريني يا آنسة، هل اتصلت هاتفياً هذه الليلة بصديق منذ وصولك؟

- أنا أتصل بصديق هاتفياً؟ لا، يا له من سؤال غريب!

- أجل، أنا رجل غريب.

- أنا متأكّدة أنك هكذا، وأنت رجل خطير جداً.

- لا، لست خطيراً، قولي إنني رجل قد يكون نافعاً في الخطر. هل فهمتِ؟

فضحكَت قائلة: لا، أنت خطير.

فتنهّد هيركيول وقال: أرى أنكِ لا تفهمين كل هذا. غريب جداً!

وأفاق توني من نوبة شرود ذهني تملّكته وقال فجأة: لولا، ما رأيك في رقصة صغيرة؟ تعالَي معي.

نهضت ونهض توني وهو يقول لبوارو: يمكنك أن تفكّر في الجريمة القادمة أيها الفتى العجوز.

فقال بوارو: كلامك له مغزى عميق.

وجلس بوارو مستسلماً لتأمّلاته بعض لحظات، وما لبث أن أشار بإصبعه فجاء لويجي في الحال ووجهه الإيطالي يفيض ابتساماً، فقال بوارو: أريد منك يا صديقي بعض المعلومات.

- أنا في خدمتك دائماً يا سيدي.

- مَن مِن بين الجالسين إلى هذه المائدة تكلّم بالهاتف هذه الليلة؟

- بإمكاني أن أقول لك يا سيدي. السيدة الشابّة ذات الثوب الأبيض تكلّمَت بالهاتف عند قدومها إلى هنا مباشرة ثم ذهبَت إلى غرفة الملابس لتترك معطفها، وحينما كانت تفعل ذلك كانت السيدة الأخرى قد خرجت من غرفة الملابس ودخلت مقصورة الهاتف.

- إذن فالسيدة تكلّمَت فعلاً بالهاتف. هل كان ذلك قبل دخولها إلى المطعم؟

- نعم يا سيدي.

- وهل تكلّم أحد آخر؟

- لا يا سيدي.

- كل هذا يا لويجي يجعلني أفكّر بشدّة. نعم، أظن يا لويجي أنه لا بدّ لي -في هذه الليلة من دون الليالي كلّها- أن أحتفظ بكل قوَاي الفكرية في حالة نشاط تامّ؛ فهناك شيء سوف يحدث وأنا غير متأكّد تماماً ماذا سيكون.

- هل هناك شيء يمكن أن أفعله يا سيدي؟

فأبدى بوارو إشارة فانسحب لويجي على إثرها برصانة، وفي نفس الوقت كان ستيفن كارتر عائداً إلى مكانه حول المائدة، فقال بوارو: ما زلنا وحدنا منبوذَين بين المجموعة يا سيد كارتر.

- أجل، تماماً.

- هل تعرف السيد بارتون راسل جيداً؟

- نعم، عرفته منذ فترة كافية.

- أخت زوجته الآنسة ويذربي الصغيرة فتاة ساحرة.

- أجل، إنها فتاة جميلة.

- هل تعرفها هي الأخرى جيداً؟

- جدّاً.

فقال بوارو: أجل، جدّاً.

فنظر كارتر إليه محدّقاً، ثم سكتت الموسيقى وعاد الآخرون. وقال بارتون راسل للنادل: زجاجة شراب، بسرعة.

ثم رفع كأسه قائلاً: اسمعوا يا جماعة، سأطلب منكم أن تشربوا نخباً. أقول لكم الحقيقة، هناك فكرة وراء سهرتنا الصغيرة هذه الليلة، لقد حجزت مائدة لستة أشخاص كما تعرفون، ولم يكن هناك في الواقع أكثر من خمسة، ومعنى هذا وجود مكان سادس خال. ثم حدث -بمصادفة غريبة جدّاً- أن السيد هيركيول بوارو تصادف وجوده هنا، فطلبت منه أن ينضمّ إلى المجموعة. أنتم لا تعرفون حتى الآن إلى أيّ حدّ كانت هذه مصادفة مناسبة؛ فذلك المكان الخالي هنا يمثل السيدة التي تقام هذه الحفلة من أجل ذكراها. هذه الحفلة سيّداتي وسادتي تقام تكريماً لذكرى زوجتي العزيزة إيريس التي توُفّيَت منذ أربع سنوات في مثل هذا اليوم بالضبط.

وحدثت حركة حول المائدة تنمّ عن الانزعاج في حين رفع بارتون راسل كأسه ووجهه يشفّ عن جمود تام قائلاً: أطلب منكم أن تشربوا من أجل ذكرى إيريس.

وهنا قال بوارو بحدّة: إيريس؟!

وسُمعت حول المائدة همهمة متكرّرة: إيريس، إيريس!

وبدا كل واحد منهم منزعجاً مضطرباً، فاستطرد بارتون راسل يقول بلهجته الأمريكية الفخمة والكلمات تخرج من فمه

متثاقلة: قد تَعجبون كلّكم لأني أُحيي ذكرى ميّت بهذه الطريقة، بدعوة للعشاء في مطعم راق فاخر. لكن عندي سبباً لذلك. نعم، عندي سبب، وكي يستنير السيد بوارو فسأشرح الأمر.

وأدار رأسه إلى ناحية بوارو وراح يقول: منذ أربع سنوات يا سيد بوارو أقيمت سهرة عشاء في نيويورك، وقد حضر تلك السهرة زوجتي وأنا، والسيد ستيفن كارتر الذي كان ملحقاً بالسفارة في واشنطن، والسيد أنتوني تشابل الذي كان ضيفاً في بيتنا لعدّة أسابيع، والسيدة فالديز التي كانت في ذلك الحين تسحر نيويورك برقصتها. وكانت بولين الصغيرة هذه (وربت على كتفيها) في السادسة عشرة فقط، ولكنها جاءت إلى سهرة العشاء بلفتة خاصّة. وبالمناسبة، هل تتذكّرين هذا يا بولين؟

فقالت بصوت اهتزّت نبراته قليلاً: نعم، أتذكر.

- سيد بوارو، في تلك الليلة حدثت فاجعة. لقد دقّت الطبول وبدأ الرقص وانطفأت الأنوار كلّها ما عدا بصيص ضوء في وسط الحلَبة، وعندما أضيئت الأنوار من جديد يا سيد بوارو شوهدَت زوجتي مرتمية إلى الأمام على المائدة. كانت ميتة... جثة هامدة! وقد وُجِدَت مادة السيانيد في بقايا كأسها، واكتُشفت في حقيبة يدها بقية لفافة السيانيد.

فقال بوارو: هل انتحرت؟

- كان هذا هو القرار الذي قَبِله الجميع. لقد حطّمَتني الفاجعة يا سيد بوارو! كان رأي الشرطة أنه يُحتمَل وجود سبب لمثل هذا العمل من جانبها، وقد تقبّلت القرار.

وما لبث أن ضرب المائدة بقبضته فجأة وقال: لكنني لم

أقتنع، أبداً! كنت طوال أربع سنوات دائم التفكير والغمّ ولم أقتنع لحظة! أنا لا أعتقد أن إيريس قَتلت نفسها، بل أعتقد يا سيد بوارو أنها قُتلت بفعل واحد من الجالسين حول هذه المائدة.

فوثب توني تشابل من مكانه قائلاً: اسمع يا سيدي...

فبادره راسل قائلاً: الزم الهدوء يا توني، أنا لم أنتهِ بعد. لقد فعلها أحدهم وأنا واثق من هذا. شخصٌ ما انتهز فرصة الظلام ودسّ لفافة السيانيد نصف الفارغة في حقيبة يدها، وأظن أنني أعرف مَن الفاعل ولا بدّ لي من الوصول إلى الحقيقة.

وعندئذ ارتفع صوت لولا تقول بحدّة: أنت مجنون! مَن كان يمكن أن يضرّها؟ لا، أنت مجنون! أنا لن أبقى هنا ولا...

ولم تتمّ كلماتها؛ فقد سُمع دقّ الطبول فقال بارتون راسل: لقد بدأ عزف الموسيقى، وبعد انتهائه سوف نستمرّ في هذا الموضوع. ليبقَ كل منكم مكانه وسأذهب إلى الفرقة الموسيقية وأتكلّم معهم، هناك ترتيب خاصّ اتفقت معهم عليه.

ونهض وغادر المائدة، فعقّب كارتر قائلاً: عملية غريبة... يا للرجل المجنون!

وقالت لولا: أجل، إنه مجنون!

خفتت الأضواء، وعندئذ قال توني: أنا على استعداد للانسحاب ولا أبالي.

فقالت بولين بحدّة: لا. ثم لم تلبث أن غمغمت قائلة: يا للغرابة، يا للغرابة!

فغمغم بوارو قائلاً: ماذا جرى يا آنسة؟

فأجابت بصوت أقرب إلى الهمس: هذا فظيع، إنه أشبه بما حدث في تلك الليلة!

صدرَت أصوات تقول: صه، صه! فخفض بوارو صوته وهمس للفتاة وهو يربت على كتفها مُطَمْئِناً: كلمة صغيرة في أذنك... كل شيء سيكون على ما يرام.

فهتفت لولا: يا إلهي، اسمع!

- ماذا جرى يا سيدتي؟

- إنه نفس اللحن، نفس الأغنية التي عزفوها تلك الليلة في نيويورك! لا بدّ أن بارتون دبّر هذا... أنا لا أطيق ما يحدث.

- تشجّعي!

وخيّم صمت جديد، وخرجت إلى وسط الحلبة فتاة سمراء وبدأت تغنّي بصوت عميق أجشّ كان مؤثراً بصورة غريبة، وكانت كلمات الأغنية تقول: «أنا نسيتكَ ولا أفكّر فيك، كلّ كلامك وإشاراتك وتصرّفاتك، كلّها راحت من خيالي واختفت من بالي، أنا نسيتك ولا أفكّر فيك، لا أعرف اليوم لون عينيك، فقد نسيتك ولا أفكّر فيك، أنا مللت ذكراك، أنا نزعت هواك، أنت عني بعيد... بعيد... بعيد».

كان لعمق الصوت الذهبي الشجي ونبرات الانتحاب تأثير شديد، كان لها أثر التنويم المغناطيسي، أثر السحر الفعّال. راح روّاد القاعة جميعاً يحدّقون إلى المغنّية مبهورين بعمق العاطفة التي كانت تسكبها مع الأغنية. وجاء الساقي إلى المائدة بخفّة وطاف حولها فملأ الكؤوس، ولكن الاهتمام كلّه كان مركّزاً

على المغنّية السمراء التي مضت تغنّي بصوتها العميق قائلة: «أنا نسيتكَ ولا أفكّر فيك، كذبة كبرى أن أفكّر فيك، إلى أن أموت...».

وما إن سكتت حتى انفجر التصفيق بحماسة وسطعت الأضواء وعاد بارتون راسل إلى المائدة وجلس إلى مقعده. وهتف توني قائلاً: مغنّية رائعة، إنها...

ولكن كلماته بُترَت إثر صيحة خافتة من لولا: انظروا، انظروا!

فنظروا جميعاً ورأوا بولين مرتمية إلى الأمام على المائدة، فهتفت لولا: لقد ماتت... مثل إيريس تماماً... مثل إيريس في نيويورك!

فوثب بوارو من مقعده وهو يشير إلى الباقين أن يلزموا أماكنهم وانحنى فوق الفتاة المكوّمة على نفسها ورفع يدها المدلاّة برقّة متناهية وأخذ يتحسّس نبضها. وبدا وجهه شاحباً صارماً، وأخذ الآخرون يراقبونه وقد شُلّت حركاتهم وبدَوا كأنما سمّرتهم قوّة سحرية، وما لبث بوارو أن أومأ برأسه ببطء وقال: نعم، لقد ماتت الصغيرة المسكينة... كل ذلك وأنا جالس هنا بجانبها! لكن لا، في هذه المرّة لن يفلت القاتل.

فغمغم بارتون راسل وهو مكفهرّ الوجه: مثل إيريس تماماً! لقد رأت شيئاً، لقد رأت بولين شيئاً في تلك الليلة لكنها لم تكن متأكّدة! قالت لي إنها لم تكن متأكّدة. لا بدّ من استدعاء الشرطة، يا إلهي! بولين الصغيرة!

فقال بوارو: أين كأسها؟

وأخذ الكأس ورفعها إلى أنفه ثم قال: نعم، أشمّ رائحة السيانيد. نفس الطريقة، نفس السمّ!

وتناول حقيبة يدها قائلاً: لننظر ما في الحقيبة.

وعندئذ هتف بارتون قائلاً: أنت لا تعتقد أنها مسألة انتحار أيضاً، أليس كذلك؟

فقال له بوارو بلهجة الأمر: نعم؛ فالأنوار أضيئت بسرعة والقاتل لم يجد وقتاً كافياً، وإلاّ فالسمّ لا يزال معه الآن.

- أو معها.

قال هذا وهو ينظر إلى لولا فالديز، فصرخت الراقصة قائلة: ماذا تقصد؟ ماذا تقول؟! أتقصد أنني قتلتها؟ هذا غير صحيح، غير صحيح! لماذا أفعل شيئاً كهذا؟!

فهتف بوارو قائلاً: التزموا السكوت، أنا وحدي الذي أتكلّم.

فقال بارتون راسل بتثاقل: لا بدّ من تفتيش كل واحد بيننا.

فقال بوارو بهدوء: لا، هذا غير ضروري.

- ماذا تقصد بقولك إنه غير ضروري؟

- لأنني أنا، هيركيول بوارو، سوف أعرف. أنا أُبصر بعين العقل وسوف أتكلّم. سيد كارتر، هلاّ أريتنا لفافة الورق الصغيرة الموجودة في جيب سترتك الداخلية؟

- لا شيء في جيبي... يا إلهي!

- توني يا صديقي العزيز، هل تتكرّم بتفتيش جيبه؟

فصرخ كارتر قائلاً: لعنة الله عليك!

وانتزع توني لفافة الورق الصغيرة من جيب سترة كارتر الداخلي قبل أن يستطيع كارتر أن يقاوم، وقدّمها إلى بوارو قائلاً: ها هي يا سيد بوارو، تماماً كما قلت.

فصاح كارتر: هذا افتراء وزور!

فتناول بوارو اللفافة الصغيرة وقرأ الاسم المكتوب على غلافها: «سيانيد البوتاسيوم»... إذن فالقضية أصبحت تامة.

وهنا انبعث صوت بارتون يقول بنبرات حادّة: كارتر! لقد كنت دائماً أظن ذلك... إيريس كانت تحبّك وكانت تريد أن تهرب معك، ولكنك لم تحبّ إلا مستقبلك السياسي الذي هو عندك أعزّ من أيّ شيء، وهكذا قمت بتسميمها. سوف تشنَق بسبب هذا أيها الكلب!

فانبعث صوت بوارو رنّاناً يقول بلهجة آمرة قاطعة: أرجو السكوت! الحكاية لم تنتهِ بعد وأنا عندي ما أقوله. لقد قال لي صديقي توني عندما وصلت إلى هنا إنني جئت للبحث عن الجريمة، وهذا صحيح إلى حدّ ما، فقد كانت الجريمة تشغل بالي، ولكن بمعنى التفكير في منع وقوع الجريمة. لقد دبّر القاتل جريمته وأحكم التدبير، ولكن هيركيول بوارو كان أسبق منه؛ كان على هيركيول بوارو أن يهمس بسرعة في أذن الآنسة بولين عندما انطفأت الأنوار، وقد كانت بولين سريعة الذكاء ولعبت دورها بمهارة. يا آنسة بولين، هل تتكرّمين وتظهِرين لنا أنك لست من الأموات فعلاً؟

وعندئذ اعتدلت بولين وجلست وضحكت قائلة: بولين تُبعَث حية!

- بولين، حبيبتي بولين!

- توني!

أما بارتون راسل فقد شهق قائلاً: أنا... أنا لا أفهم شيئاً!

- سوف أساعدك على الفهم يا سيد بارتون راسل، لقد فشلَت خطتك.

- خطّتي؟!

- نعم، خطّتك. مَن هو الشخص الوحيد الذي توافر له إثبات لوجوده بعيداً عن مكان الجريمة في فترة الظلام؟ إنه الشخص الذي ترك الطاولة، أي أنت يا سيد بارتون راسل. لكنك رجعت إلى المائدة تحت ستار الظلام ودُرْت حولها ومعك زجاجة شراب، وملأت الكؤوس ووضعتَ سمّ السيانيد في كأس بولين، ثم أسقطتَ لفافة المسحوق نصف الخاوية في جيب كارتر عندما انحنيتَ فوقه لرفع الكأس. من السهل أن تقوم بدور الساقي في الظلام وأنظار الجميع متجهة إلى شيء آخر... لقد كان هذا هو السبب الحقيقي للحفلة التي أقمتَها هذه الليلة، وأسلم مكان لارتكاب جريمة هو في وسط الزحام.

- يا إلهي، وما الذي يدعوني إلى القتل؟

- ربما كان السبب هو المال، فزوجتك تركتك وصيّاً على أختها وقد ذكرتَ هذه الحقيقة الليلة، وبولين الآن في العشرين من عمرها، وعندما تبلغ الحادية والعشرين أو عند زواجها لا بدّ

من تقديم حساب عن وصايتك، وفي ظني لن تستطيع هذا لأنك ضاربت بمالها وبدّدتَه. ولست أعرف يا سيد بارتون راسل إن كنت قد قتلت زوجتك بنفس الطريقة أم أن انتحارها قد أوحى إليك بفكرة هذه الجريمة، ولكن الذي أعرفه فعلاً هو أنك هذه الليلة متّهم بمحاولة ارتكاب جريمة قتل، ومن حق الآنسة بولين أن توجّه إليك الاتهام بصفة رسمية.

فقالت بولين: لا، يمكنه أن يبتعد عن نظري وعن هذه البلاد؛ أنا لا أريد فضيحة.

- إذن فمن الخير أن تذهب بسرعة يا سيد بارتون راسل، ونصيحتي لك أن تلزم الحذر في المستقبل.

فلم يملك بارتون راسل إلاّ أن نهض ساخطاً وقال ووجهه يطفح غيظاً: لعنة الله عليك أيها الذئب البلجيكي!

وابتعد غاضباً، فتنهّدت بولين وقالت: لقد كنتَ رائعاً يا سيد بوارو.

- بل أنتِ يا آنسة التي كنت غاية في الروعة، ولا سيما عندما سكبتِ كأس الشراب تحت الطاولة ومثّلت دور الميتة بمثل هذا الإتقان.

فارتعدت الفتاة قائلة: يا إلهي، بدني يقشعرّ الآن!

فقال لها بوارو برقة: كنت أنت التي كلّمتِني هاتفياً، أليس كذلك؟

- بلى.

- لماذا؟

- لا أعرف، لقد كنت أشعر بقلق وفزع دون أن أعرف بالضبط سبب فزعي. لقد أخبرني بارتون أنه سيقيم هذه الحفلة إحياء لذكرى وفاة أختي إيريس، فأدركت أن عنده خطّة يفكّر فيها، ولم يخبرني عن خطّته ولكن بدا لي أنه في حالة غريبة جداً لدرجة شعرت معها بأن شيئاً مروّعاً ربما يحدث. ولم يخطر ببالي بالطبع ولم أحلم لحظة واحدة أنه كان يقصد أن يتخلّص مني!

- وماذا بعد يا آنسة؟

- كنت أسمع الناس يتكلّمون عنك يا السيد بوارو، وخطر لي أنه إذا أمكنني أن أجعلك تجيء إلى هنا فربما يكون بإمكانك منع حدوث أيّ شيء. نعم، ظننت أنني إذا كلّمتك هاتفياً وتظاهرت بأنني في خطر وجعلت المسألة تبدو غامضة فسوف...

- لقد خطر لك أن عنصر الدراما والغموض قد يجذبني. في الواقع هذا ما أثار عجبي فيما يختصّ بمضمون مكالمتك الهاتفية ذاته، فقد اعتبرته نوعاً من التمويه ولم أحمله على محمل الصدق، لكن الخوف الذي تجلّى في صوتك كان خوفاً حقيقياً، ولذلك فقد جئت إلى هنا، ورأيتك تنكرين إنكاراً باتّاً أنك وجّهت إليّ أية مكالمة هاتفية!

- كنت مضطرّة إلى هذا، وفضلاً عن ذلك فلم أُرِد أن تعرف أنني مصدر المكالمة.

- لكنني تأكّدت من هذا. لم أتأكّد من أول لحظة لكنني لم ألبث أن أدركت أن الشخصَين الوحيدَين اللذين يمكن أن يعرفا شيئاً عن أزهار السوسن الأصفر الموضوع على المائدة لا بدّ أن يكونا أنت أو السيد بارتون راسل.

فأومأت بولين إيجاباً قائلة: لقد سمعته يأمر بوضع هذه الأزهار على المائدة، فضلاً عن أمره بإعداد مائدة لستّة أشخاص وأنا أعلم أن القادمين خمسة فقط، مما جعلني أشك في...

وتوقّفت عن إتمام كلامها وهي تعضّ شفتيها، فقال بوارو: ما الذي شككت فيه يا آنسة؟

فأجابت ببطء: تخوّفت أن يحدث شيء للسيد كارتر.

فتنحنح ستيفن كارتر ولم يلبث أن نهض متباطئاً ولكنه قال بعزم ظاهر: لا بدّ لي أن أشكرك يا سيد بوارو. أنا مدين لك بفضل عظيم، سوف تَعذرون وتتجاوزون إذا تركتكم وذهبت؛ فهذه الليلة كانت مزعجة!

وراحت بولين تقول بانفعال شديد وهي تتبعه بنظراتها: كم أكرهه! طالما خطر لي أن إيريس لم تَقتل نفسها إلا بسببه، أو لعل بارتون هو الذي قتلها بسببه أيضاً. يا إلهي، المسألة كلّها شنيعة بشعة!

فقال بوارو برقّة: انسي يا آنستي، دعي الماضي يذهب، فكّري في الحاضر فقط.

فغمغمت بولين قائلة: أجل، أنت على حقّ.

ثم مالت نحو توني وقالت: آه يا توني! لقد كنت قاسية في تصرّفاتي معك طوال السهرة. هل يمكن أن تسامحني؟

- يا ملاكي! هذه هي أغنيتنا المحبوبة تعزف من جديد.

* * *

الحلم القاتل

ألقى هيركيول بوارو على القصر العتيق نظرة طويلة فاحصة، وراح يدور بنظره لحظة فيما حول المنزل من حوانيت ومصنع كبير إلى اليمين وعمارة سكنية في الناحية المواجهة. ومرة أخرى عاد بنظره إلى ذلك القصر العتيق المسمّى نورث واي هاوس الذي كانت الحقول الخضراء تحفّ مبناه الشامل، أمّا الآن فهو من مخلفات الماضي، غارق في بحر لندن العصرية، ولا يتذكّر عنوانَه سوى واحد من الناس. وأكثر من هذا فالقليلون هم الذين يعرفون من يملكه، وإن كان ذلك المالك معدوداً من أغنى أغنياء العالم.

لكن بنديكت فارلي، المليونير الغريب الأطوار، اختار ألاّ يعلن عن مقرّ سكنه، وكان هو نفسه قليلاً ما يراه الناس، وبين حين وآخر كان يظهر فقط في جلسات مجلس إدارة الشركات التي يساهم فيها، فيهلّ بقامته النحيلة وأنفه المنقاري وصوته الرنّان على المديرين المجتمعين مُحْدِثاً تأثيره القويّ بينهم. أمّا فيما عدا ذلك فقد كانت حياته شبه أسطورة بما اشتهر عنه من البخل الغريب والكرم المفرط، وخاصةً ما عُرف عنه من ذلك المعطف المنزلي المرقّع الألوان الشهير الذي ظلّ يلازمه ثمانية وعشرين عاماً، بالإضافة إلى طعامه الذي لا يتغير والمؤلَّف من حساء الكرنب والكافيار، ثم أخيراً كراهيته الشديدة للقطط.

تلك هي الخصائص التي كان الناس يعرفونها عن ذلك

المليونير، وهي أيضاً كل ما عرفه هيركيول بوارو عن الرجل الذي أتى لزيارته، ثم إن الرسالة التي تلقّاها منه والتي كانت في جيب معطفه لم تفصِح له عن أكثر من هذا.

وبعد أن تفحّص هيركيول بوارو القصر وما حوله مدى دقيقتين صعد الدرَج إلى الباب الأمامي وضغط على الجرس وهو يلقي نظرة على ساعة معصمه فوجدها تشير إلى تمام التاسعة والنصف، وهكذا كان هيركيول بوارو دقيقاً في موعده كما هي عادته دائماً.

وفُتح الباب بعد لحظات وظهر أمامه رجل هو صورة للساقي بكل أوصافه، فسأله هيركيول بوارو: السيد بنديكت فارلي؟

فشمله الرجل من قمّة رأسه إلى قدميه بنظرة فاحصة ولكن مؤدّبة وقال باحترام: هل عندك موعد يا سيدي؟

- نعم.

- ما اسمك يا سيدي؟

- السيد هيركيول بوارو.

فانحنى الساقي وأفسح الطريق، فدخل هيركيول بوارو وأغلق الساقي الباب خلفه. لكن كان هناك إجراء رسميّ آخر قبل أن تمتدّ يدا الساقي الخبيرتان إلى قبّعة الزائر وعصاه، فقد قال له: معذرة يا سيدي، مطلوب منّي أن أسأل عن خطاب معك.

فأخرج بوارو الرسالة من جيبه متمهّلاً وناولها للساقي الذي ألقى عليها نظرة عابرة ثم ردّها إليه منحنياً فأعادها بوارو إلى

جيبه، وكانت بالنص الآتي:

نورث واي هاوس

السيد هيركيول بوارو

سيدي العزيز، يودّ السيد بنديكت فارلي أن ينتفع برأيك الاستشاري، وهو يرغب إذا راقك هذا أن تشرّفه بالزيارة في العنوان أعلاه في الساعة التاسعة والنصف غداً الخميس مساء.

المخلص: هوغو كورنويرذي، السكرتير.

ملحوظة: الرجاء إحضار هذا الخطاب معك.

وهكذا ساعد الساقي هيركيول بوارو في خلع معطفه وقبّعته وعصاه قائلاً: تفضّل بالصعود إلى غرفة السيد كورنويرذي.

وتقدّمه في صعود الدرجات العريضة في حين كان بوارو يتفحّص في طريقه بعين خبير الفنون تلك التحف الفنية الثمينة التي اصطفّت من حوله. ووقف الساقي في الطابق الأوّل وطرق أحد الأبواب، والواقع أن بوارو استنكر هذا لأن السقاة المدرّبين لا يطرقون الأبواب، ومع ذلك ليس من شك في أن هذا الساقي رجل مدرّب عريق. كانت هذه البادرة الأولى التي لاحت له مبيّنة غرابة أطوار ذلك المليونير.

وجاء صوت من الداخل يقول شيئاً، ففتح الساقي الباب وأعلن حضور القادم وهو ما عدّه بوارو إحدى الغرائب الأخرى. قال الساقي: السيد الذي تنتظره يا سيدي.

ودخل بوارو إلى الغرفة، كانت رحيبة بسيطة الأثاث ولكن

من طراز ثمين، كان بها خزانات وأرفف وكتب مراجع ومقعدان وثيران ومكتب كبير مهيب تعلوه أوراق مرتبة بعناية، وكانت أركان الغرفة معتمة، فقد كان الضوء الوحيد ينبعث من مصباح للقراءة مظلّل باللون الأخضر وقائم فوق طاولة صغيرة مجاورة لأحد المقعدَين الوثيرَين، وقد وُضع بحيث يسلّط ضوؤه القويّ كاملاً على أيّ إنسان يدخل من الباب.

ولم يتمالك بوارو أن طرف بعينيه قليلاً لقوّة وهج المصباح، وفي المقعد الوثير جلس شخص نحيل يرتدي معطفاً مرقّع الألوان وهو بنديكت فارلي، وكان ينظر بوجهه إلى الأمام على نحو غريب. وبدا أنفه المنقاري كمنقار طير فعلاً، وعلَت رأسه خصلة شعر تكاد تكون معدودة الشعيرات، وكانت عيناه تلمعان من خلف نظّارة سميكة وهو يُحرِج زائره بنظرات مرتابة.

ثم قال أخيراً بصوت أجشّ رنان: هل أنت هيركيول بوارو؟

فأجاب بوارو بأدب وقد أحنى رأسه ويده على ظهر المقعد: في خدمتك يا سيدي.

فقال العجوز بتبرُّم: اجلس، اجلس.

فجلس بوارو في وهج ضوء المصباح، وبدا أن الرجل من خلفه يتفرّس فيه باهتمام، ثم قال الرجل بلهجة المشاكس: وكيف أعرف أنك أنت هيركيول بوارو؟ قل لي.

ومرة أخرى أخرج بوارو الرسالة من جيبه وقدّمها إلى فارلي فسلّم المليونير عن كره منه قائلاً: نعم، هي الرسالة، الرسالة التي طلبت من كورنويرذي أن يكتبها.

وطوى الرسالة وردّها إليه قائلاً: إذن فأنت الشخص المطلوب، أليس كذلك؟

فقال بوارو بإشارة يسيرة من يده: أؤكّد لك أنه ليس هناك أيّ خداع.

فضحك بنديكت فارلي فجأة قائلاً: هذا هو نفس ما يقوله الحاوي قبل إخراج الأرنب من القبّعة، كلامه هذا هو جزء من اللعبة كما تعرف.

ولم يُجب بوارو، وفجأة قال فارلي: هل تظنّ أنني عجوز متشكّك؟ أنا هكذا فعلاً، لا أثق بأيّ إنسان وهذا هو شعاري، لا يمكن أن أثق بأيّ إنسان، وأنت.

فقال بوارو برفق: لقد أردتَ استشارتي!

فأومأ العجوز إيجاباً قائلاً: هذا صحيح، فأنا دائماً أشتري الأفضل، هذا هو شعاري: «اذهب إلى أهل الخبرة ولا تهتمّ بالثمن». سوف تلاحظ يا سيد بوارو أنني لم أسألك عن قيمة أتعابك ولن أسألك. ابعث لي كشف الأتعاب ولن أدقّق المراجعة والحساب. إن المغفلين في متجر الألبان ظنّوا أنه يمكنهم أن يأخذوا مني شلنين وتسعة بنسات عن البيض في حين أن الثمن بسعر السوق هو شلنان وسبعة بنسات! جماعة من النصّابين، ومثلي لا ينصبُ عليه أحد.

ولم يعقّب بوارو بل جلس ينصت باهتمام، ومن خلف مظهره الساكن كان يشعر بشيء من خيبة الأمل دون أن يستطيع أن يحدّد مصدره بالضبط، فإلى تلك اللحظة كان بنديكت فارلي صورة مطابقة لما هو شائع عنه، ومع ذلك فقد خامره شعور

بخيبة الأمل حتى قال لنفسه إن الرجل مهرّج، هو لا شيء أكثر من مهرّج.

لقد عرف أثرياء آخرين وكانت لهم غرابة الأطوار أيضاً، ولكنه في كل حالة كان يلمس لوناً معيّناً من قوّة الشخصية أو النشاط الذاتي مما كان يستأثر باحترامه، ولو اختاروا أن يلبسوا معطفاً مرقّعاً لكان ذلك لأنهم يهوون أن يفعلوا هذا، ولكن بدا لبوارو أن معطف بنديكت فارلي كان أقرب إلى الملابس المسرحية، بل كان الرجل ذاته كإحدى الشخصيات المسرحية، فقد شعر بوارو أن كل كلمة فاهَ بها كان مقصوداً بها التأثير المسرحي.

ومرة أخرى قال بوارو بغير انفعال: هل أردت استشارتي يا سيد فارلي؟

وفجأة تبدّلت حالة المليونير، فقد مال إلى الأمام واستحال صوته إلى شبه نقيق وهو يقول: نعم، نعم، أريد أن أسمع ما يمكن أن تقوله وما تظنه، فأنا أطلب الأفضل دائماً، الطبيب الأفضل والمخبر السرّي الأفضل، والمسألة محصورة بين الاثنين.

- أنا حتى الآن لا أفهم يا سيدي.

فردّ فارلي قائلاً بحدّة: هذا طبيعي؛ فأنا لم أبدأ كلامي لك بعد.

ومال إلى الأمام مرة أخرى وأطلق سؤالاً مفاجئاً: ما الذي تعرفه يا سيد بوارو عن الأحلام؟

فرفع بوارو حاجبه؛ فهو لم يتوقّع شيئاً كهذا، غير أنه ردّ قائلاً: إذا كان الأمر كذلك يا سيد فارلي فأنا أحيلك إلى كتاب الأحلام لنابليون وإلى أحدث طبيب نفساني من شارع هارلي ستريت.

فقال بنديكت فارلي برصانة: لقد جرّبت الاثنين.

وساد بعض الصمت ثم استأنف المليونير كلامه بلهجة كانت في أوّل الأمر أقرب إلى الهمس ثم أخذ صوته بعد ذلك يتزايد ارتفاعاً: إنه نفس الحلم، ليلة بعد ليلة. أنا خائف! أقولها لك: أنا خائف! إنه نفس الحلم دائماً، أراني في الحلم جالساً أكتب في غرفتي المجاورة لهذه الغرفة، وهناك ساعة معلّقة أنظر إليها وأرى الوقت. هو بالضبط الساعة الثالثة و٢٨ دقيقة، نفس الوقت دائماً، وعندما أرى الوقت يا سيد بوارو أشعر أنه لا بدّ لي من أن أفعلها، أنا أكره أن أفعلها لكن لا بدّ لي من فعلها!

قال هذا وقد علا صوته أجشّ رناناً، فقال بوارو دون أن يتأثّر: وما تلك الفعلة التي لا بدّ أن تفعلها؟

فقال بنديكت فارلي بصوت متحشرج: في الساعة الثالثة و ٢٨ دقيقة أفتح الدُّرج الثاني في مكتبي من ناحية اليمين وأخرج منه المسدّس الذي أحتفظ به فيه وأحشوه ثم أتجه إلى النافذة، وبعد ذلك... وبعد ذلك...!

- ماذا؟

فقال بنديكت فارلي بصوت هامس: وبعد ذلك أطلق الرصاص على نفسي!

وخيّم الصوت برهة، وما لبث بوارو أن قال: هل هذا هو الحلم الذي تراه؟

- نعم.

- نفس الحلم كل ليلة؟

- نعم.

- وماذا يحدث بعد أن تطلق الرصاص على نفسك؟

- أستيقظ من نومي.

فأومأ بوارو برأسه ببطء مفكّراً ثم قال: من باب العلم، هل تحتفظ بمسدّس في ذلك الدُّرج بالذات؟

- نعم.

- لماذا؟

- أنا أفعل هذا دائماً؛ فمن الأسلم أن يكون الإنسان مستعدّاً.

- مستعداً لماذا؟

فأجاب فارلي ممتعضاً: لا بدّ لرجل في مركزي أن يكون على حذر، كل الأغنياء لهم أعداء.

وظلّ بوارو صامتاً برهة ثم قال أخيراً: لماذا أرسلتَ في طلبي بالضبط؟

- سأقول لك قبل كل شيء إنني استشرت أحد الأطبّاء، بل ثلاثة أطبّاء إن أردتَ الدقّة. قال الأوّل إنها مسألة تغذية، وكان ذلك الطبيب رجلاً مُسِنّاً، وكان الثاني شاباً من المدرسة

الحديثة وقال لي إن المسألة كلّها تدور حول حادث معيّن وقع لي في عهد الطفولة في تلك الساعة المعينة، الثالثة والدقيقة ٢٨، وقد قال لي في تفسير ذلك إنني مصمّم كل التصميم على عدم تذكّر ذلك الحادث إلى حدّ أنني أرمز إليه بإهلاك نفسي.

فقال بوارو: والطبيب الثالث؟

وهنا ارتفع صوت بنديكت فارلي يقول بصوت غاضب أجشّ: إنه شاب أيضاً، وقد طلع علي بنظرية كلّها تخريف! قال لي بلهجة التأكيد إنني تعبت من الحياة وإن حياتي أصبحَت لا تطاق إلى درجة أنني أريد أن أنهيها عامداً. ولكن لما كان اعترافي بهذا معناه أنني أعترف بالفشل فأنا أرفض في ساعات يقظتي أن أواجه الحقيقة، لكن عندما أنام تزول كل الحواجز والضوابط وأبدأ في تنفيذ ما أريد فعلاً أن أقوم به، وهكذا أضع حدّاً لحياتي!

فقال بوارو: هو يرى إذن أنك ترغب حقاً في الانتحار، وإن كانت الرغبة كامنة في أعماقك وغير معروفة لك؟

فصاح بنديكت فارلي بصوت أجش قائلاً: وهذا مستحيل، مستحيل! فأنا في غاية السعادة وعندي كل شيء أريده، كل شيء يمكن أن يُشترى بالمال. هذا تخريف؛ من الجنون أن يتقدّم أحد إليّ بمثل هذا التفسير!

وأخذ بوارو ينظر إليه بإمعان. كان ارتعاش اليدين وتهدُّج الصوت وخشونته لوناً من النذير بأن هذا الإنكار مبالغ فيه وأن الإلحاح في ترديده هو ذاته دليل على تشكّك صاحبه في صدق ما يقول، لكنه اكتفى بأن قال له: وأين دوري في هذه المسألة يا سيدي؟

وفجأة اتجه بنديكت فارلي إلى الهدوء ولم يلبث أن نقر بإصبعه على الطاولة المجاورة له قائلاً: هناك احتمال آخر، وإذا صحّ هذا الاحتمال فستكون أنت الرجل الذي يعرف الحقيقة. أنت شخصية مشهورة، وقد عالجتَ مئات القضايا الغريبة الشاذّة، وأنت الوحيد الذي يمكنه أن يعرف.

- أعرف ماذا؟

وعندما هبط صوت فارلي إلى حدّ الهمس وهو يقول: لنفرض أن هناك أحداً يريد قتلي فهل يمكنه أن يفعل هذا بهذه الطريقة؟ هل يمكنه أن يجعلني أحلُم ذلك الحلم ليلة بعد ليلة؟

- أتقصد بالتنويم المغناطيسي؟

- نعم.

فأخذ هيركيول بوارو يتأمّل برهة ثم قال أخيراً: أظن أن هذا وارد، وفي هذه الحالة يكون هذا من اختصاص طبيب.

- ألا تعرف حالة من هذا القبيل بين قضاياك وتجاربك العديدة؟

- ليس بهذا الوصف بالضبط.

- هل رأيت ما أرمي إليه؟ إيجاد ما يجعلني أحلم نفس الحلم ليلة بعد ليلة، وبعدئذ ذات يوم يكون الإيحاء أقوى وأشدّ من طاقتي فأعمل بتأثيره وأفعل ما كنت أحلُم به مراراً وتكراراً، وأقتل نفسي!

فهزّ هيركيول بوارو رأسه ببطء، وقال فارلي: أنت لا تظنّ

أن هذا محتمل؟

وهزّ بوارو رأسه مرة أخرى قائلاً: محتمل؟ هذه كلمة لا أحبّ استعمالها.

- لكنك تظن أنه غير محتمل؟

- غير محتمل بالمرّة.

فغمغم بنديكت فارلي قائلاً: لقد قال الطبيب هذا أيضاً.

ولم يلبث أن ارتفع صوته خشناً أجشّ من جديد وهو يقول: لكن لماذا أحلُم هذا الحلم؟ لماذا؟ لماذا؟!

وهزّ هيركيول بوارو رأسه في حين قال بنديكت فارلي فجأة: هل أنت متأكّد أنك لم تصادف مثل هذه الحالة في تجاربك الكثيرة؟

- نعم.

- هذا ما أردت أن أعرفه.

فتنحنح بوارو برفق وقال: هل تسمح بسؤال؟

- ما هو؟ قل ما تريد.

- مَن الذي تشكّ في أنه يريد قتلك؟

فأجاب فارلي بحدّة: لا أحد، لا أحد إطلاقاً.

فقال بوارو بإصرار: ولكن الفكرة خطرت لك؟

- أردت أن أعرف إن كان هذا مما يمكن أم لا.

- إذا تكلّمت من وحي تجاربي الخاصة قلت لا. وبهذه

المناسبة، هل تعرّضت مرة لتجربة تنويم مغناطيسي؟

- بالطبع لا، هل تظن أنني أستسلم لمثل تلك الخرافات؟

- إذن ففي رأيي أن نظريتك غير محتملة قطعاً.

- والحلم أيها الأحمق؟ الحلم؟!

فقال بوارو مفكّراً: الحلم بالتأكيد مسألة غريبة.

وتوقّف برهة ثم استطرد قائلاً: بودّي أن أرى هذه الدراما، المكتب، والساعة، والمسدّس.

- بالطبع، سأذهب معك إلى الغرفة المجاورة.

ولفّ العجوز المعطف حول جسده وهمّ بالنهوض من مقعده، وفجأة عاد إلى الجلوس وكأنما هبطت عليه فكرة مباغتة وقال: لا، لا شيء يمكن أن تراه هناك، لقد أخبرتك بكل ما عندي.

- لكني أحبّ أن أرى بنفسي.

فقال فارلي بحدّة: لا داعي لهذا؛ لقد قلتَ لي رأيك، وهنا ينتهي الأمر.

فهزّ بوارو كتفيه قائلاً: كما تحبّ!

ونهض قائماً وقال: أنا آسف يا سيد فارلي لأنني لم أستطع أن أقدّم لك أيّ مساعدة.

وحدّق بنديكت فارلي أمامه مباشرة وقال بلهجة السخط:

لا أريد ضجّة لا داعي لها من حولي، لقد أخبرتك بالحقائق، وليس في قدرتك أن تستخلص منها شيئاً، وهذا إذن ينهي المسألة. يمكنك أن ترسل لي كشفاً بأتعاب الاستشارة.

فقال بوارو بجفاء: سوف أفعل هذا.

واتجه إلى الباب فناداه المليونير قائلاً: انتظر لحظة، أريد الخطاب.

- الخطاب الذي أرسله سكرتيرك؟

- نعم.

فرفع بوارو حاجبيه ووضع يده في جيبه وأخرج ورقة مطوية ناولها للعجوز الذي نظر إليها ثم وضعها على الطاولة المجاورة له مومِّئاً برأسه. ومرة أخرى اتجه هيركيول بوارو إلى الباب.

كان في عجب وحيرة، كان عقله النشيط يدور ويدور حول القصّة التي قيلت له، ومع ذلك ففي إبّان استغراقه الفكري هذا شعر أن هناك شيئاً خاطئاً يقتحم عليه تفكيره ويلحّ على عقله وأن هذا الشيء له صلة به هو نفسه وليس بالعجوز بنديكت فارلي.

وما إن وضع يده على مقبض الباب حتى صفا ذهنه. إنه هيركيول بوارو، وقد أخطأ. لذلك عاد إلى داخل الغرفة قائلاً: ألف معذرة يا سيدي، لقد ارتكبت خطأ نتيجة مشكلتك، وهو بخصوص ذلك الخطاب الذي قدّمته لك، فقد وضعت يدي سهواً في جيبي الأيمن بدلاً من الجيب الأيسر.

- ما هذا؟ ما هذا كلّه؟!

- الخطاب الذي قدّمته لك الآن هو خطاب اعتذار من

الكوّاء الذي أتعامل معه عن عدم العناية بكيّ ياقات قميصي.

قال بوارو هذا وهو يبتسم اعتذاراً، ثم دسّ يده في جيبه الأيسر قائلاً: هذا هو خطابك.

فاختطف بنديكت فارلي الخطاب وهو يزمجر قائلاً: لماذا لا تدقّق فيما تفعله؟

واستردّ بوارو خطاب الاعتذار الذي بعث به الكوّاء وأعرب عن اعتذاره مرة أخرى في رقة وأدب، ثم غادر الغرفة.

وتوقّف برهة في الخارج عند رأس الدرَج، ورأى أمامه مباشرة مقعداً خشبياً طويلاً بظهر عال ومسندَين وأمامه مائدة مستطيلة ضيّقة، وكانت المائدة تعلوها مجموعة من المجلات، وكان هناك أيضاً مقعدان بمسندَين وطاولة عليها أزهار. المشهد كلّه ذكّره بحجرة الانتظار في عيادة طبيب الأسنان!

وكان الساقي ينتظره في بهو الطابق الأرضي وقد قال له: هل أطلب لك سيارة مأجورة يا سيدي؟

- لا، أشكرك؛ فالطقس جميل وسوف أمشي.

وتمهّل هيركيول بوارو فترة على الرصيف انتظاراً لتوقّف حركة المرور قبل أن يعبر الشارع المليء بالحركة. كان يعلو وجهه عبوس رسَمَ بعض التجاعيد على جبينه، ثم قال لنفسه: لا، لست أفهم بالمرّة... لا شيء يبدو معقولاً! من المؤسف أن أضطرّ إلى الاعتراف بهذا، ولكنني، أنا هيركيول بوارو، أشعر بالحيرة والارتباك تماماً!

* * *

كان هذا ما يمكن أن يسمّى الفصل الأوّل في الدراما، وقد حدث الفصل الثاني بعد أسبوع، وكانت بدايته مكالمة هاتفية من الطبيب جون فليت الذي قال له بلا مقدّمات: أهذا أنت يا بوارو؟ أيها الحصان العجوز، أنا جون فليت.

- مرحباً يا صديقي، ماذا عندك؟

- أنا أتكلّم من نورث واي هاوس، منزل بنديكت فارلي.

فقال بوارو وقد دبّ الاهتمام في صوته: نعم، نعم، ماذا عن السيد فارلي؟

- فارلي مات، أطلق الرصاص على نفسه عصر اليوم.

فقال بوارو: نعم.

- أرى أنك لم تظهِر أيّ دهشة، هل تعرف شيئاً عن هذا الحادث أيها الحصان العجوز؟

- وما الذي يجعلك تظنّ هذا؟

- حسناً، ليس هذا استنتاجاً بارعاً أو من هذا القبيل، ولكن المسألة أننا وجدنا خطاباً من فارلي موجّهاً إليك حدّد لك فيه موعداً منذ أسبوع.

- مفهوم.

- عندنا هنا مفتش شرطي أليف، لا بدّ من الحذر إذا كانت المسألة تتعلّق بمليونير أطلق الرصاص على نفسه. لقد خطر لي أنه ربما يمكنك أن تلقي أيّ ضوء على القضية، إذا أمكنك هذا

فبوسعك أن تحضر إلى هنا.

- سوف أحضر في الحال.

- جميل. هناك عملية قذرة وراء الحادث، أليس كذلك؟

ولما اكتفى بوارو بأن قال إنه سوف يحضر في الحال قال الطبيب: أنت لا تريد أن تكشف السرّ في الهاتف، لك حق، إلى اللقاء.

وبعد ربع الساعة كان بوارو يجلس في قاعة المكتبة، وهي حجرة مستطيلة ذات سقف منخفض في الجانب الخلفي من الطابق الأرضي بقصر نورث واي هاوس مع المفتش بارنيت والطبيب فليت والسيدة فارلي أرملة المليونير وجوانا فارلي ابنته الوحيدة، وأيضاً هوغو كورنويرذي سكرتيره الخاص.

كان المفتش بارنيت رجلاً عسكري الهيئة متّزن الحركات، وكان الطبيب فليت (الذي بدت تصرّفاته المهنية مختلفة تماماً عن أسلوب حديثه التليفزيوني) شاباً طويل القامة والوجه في الثلاثين من عمره. وكانت السيدة فارلي تبدو بوضوح أصغر كثيراً من زوجها، فكانت امرأة حسناء سوداء الشعر ذات فم ينمّ عن الصلابة وعينين سوداوين لا يبدو فيهما أدنى أثر لمشاعرها، وقد بدت في ذلك الاجتماع رابطة الجأش تماماً. وكانت جوانا فارلي ذات شعر أشقر ووجه منقّط، وكان بروز أنفها وذقنها دليلاً على الخصائص الوراثية التي انتقلت إليها من والدها. أمّا هوغو كورنويرذي فكان شابّاً لا خصائص مميّزة له، وكان محتشماً في هندامه تبدو عليه علامات الفطنة والكفاءة.

وبعد التحيّات وإتمام واجبات التعارف سرد هيركيول بوارو

-ببساطة ووضوح وبين اهتمام الحاضرين وشدّة إصغائهم إليه- ظروف زيارته للمليونير الراحل بنديكت فارلي والقصّة التي قصّها عليه، وبعد أن فرغ قال المفتش: يا لها من قصّة شديدة الغرابة لم أسمع بمثلها في حياتي! حلم! هل كنتِ تعرفين أي شيء عن هذا يا سيدة فارلي؟

- لقد ذكر زوجي هذا الحلم لي، وقد كان يزعجه إلى أبعد حدّ، وقلت له إن المسألة نتيجة عسر هضم؛ فقد كان طعامه غريباً جداً! وأشرْت عليه باستدعاء الطبيب فليت.

فهزّ الطبيب الشاب رأسه قائلاً: هو لم يستشرْني، وقد فهمت الآن مما ذكره السيد بوارو أنه استشار أَطباء شارع هارلي.

- أودّ أن أعرف رأيك في هذه النقطة أيها الطبيب، لقد أخبرني السيد فارلي أنه استشار ثلاثة أطباء، فما رأيك في النظريات التي ذكروها له؟

فقطّب الطبيب فليت وجهه قائلاً: من الصعب أن أقول رأيي، لا بدّ أن تضع في تقديرك أن ما قاله لك لم يكن هو ما قيل له بالضبط؛ فقد كانت تفسيراته من قَبيل كلام أيّ رجل عاديّ غير متخصّص.

- أتقصد أنه أخطأ في ذكر الاصطلاحات الطبّية الفنية؟

- ليس تماماً، أقصد أن الأطباء كلّموه بالتعبيرات الفنية، وقد فهمها محرّفة ثم أعاد ذكرها بلغته الخاصة.

- أتعني أن ما قاله لي لم يكن هو ما ذكره الأطبّاء؟

- هذه هي المحصّلة النهائية، لقد فهم المعاني فهماً يقوم على الخطأ.

فأومأ بوارو برأسه مفكّراً ثم قال: هل يعرف أحد مَن الأطباء الذين استشارهم؟

فهزّت السيدة فارلي رأسها، وقالت جوانا فارلي: لم تكن عند أحد منا فكرة عن استشارة لأيّ طبيب.

فقال لها بوارو: هل كلّمك عن حلمه؟

فهزّت الفتاة رأسها سلباً.

- وأنت يا سيد كورنويرذي؟

- لا، لم يذكر لي شيئاً بالمرّة. لقد أرسلت إليك الخطاب بإملائه لكن لم تكن عندي أية فكرة عن سبب رغبته في استشارتك، وخطر لي فقط أن المسألة ربما كانت متعلّقة ببعض المخالفات في الأعمال.

فقال بوارو: والآن أودّ أن أسمع الوقائع الفعلية لوفاة السيد فارلي.

فنظر المفتش بارنيت إلى السيدة فارلي متسائلاً ثم إلى الطبيب فليت، ثم تولى بنفسه دور المتحدّث الرسمي فقال: كان من عادة السيد فارلي العمل في غرفته الخاصّة في الطابق الأوّل عصر كل يوم، وقد فهمت أنه كان ينظر في مشروع كبير خاصّ بمجموعة شركاته.

ونظر إلى كورنويرذي الذي ذكر البيانات المطلوبة قائلاً: هو

خاصّ بإدماج شركات عربات النوم بالسكك الحديدية.

واستطرد المفتش بارنيت قائلاً: ارتباطاً بهذا المشروع كان السيد فارلي قد وافق على إجراء حديث صحفي مع اثنين من مندوبي الصحافة، وهو نادراً ما كان يفعل شيئاً من هذا القبيل إلاّ مرّة كل خمس سنوات فيما فهمت، ونتيجة لذلك وصل الصحفيّان في الساعة الثالثة والربع بناءً على موعد محدّد. وقد انتظرا في الطابق الأوّل خارج حجرة السيد فارلي، وهو المكان الذي جرت العادة أن ينتظر فيه مَن لهم موعد مع السيد فارلي، وفي الساعة الثالثة والثلث جاء رسول من شركات عربات النوم المتّحدة ومعه أوراق عاجلة، فأُدخِل إلى حجرة السيد فارلي حتى باب الحجرة، ومن هناك تكلّم مع مندوبي الوكالتين الصحفيتين قائلاً: "أنا آسف لأنني جعلتكما تنتظران، لكن عندي مسألة عاجلة لا بدّ أن أتفرّغ لها وسأعود إليكما بأسرع ما يمكن". فأكّد له المندوبان، السيد أدامز والسيد ستوارت، أنهما سينتظران حسب راحته، فعاد إلى حجرته وأغلق الباب ولم يشاهده أحد على قيد الحياة بعد ذلك.

فقال بوارو لمفتش الشرطة: استمرّ.

فاستطرد المفتش قائلاً: وبعد الساعة الرابعة بقليل خرج السيد كورنويرذي من غرفته الملاصقة لغرفة السيد فارلي، فعَجِب عندما رأى مندوبَي الصحافة لا يزالان ينتظران، وكان يريد توقيع السيد فارلي على بعض الخطابات فبدا له أن من الأفضل كذلك أن يذكّره بأن المندوبَين لا يزالان في الانتظار، وعلى هذا دخل إلى حجرة السيد فارلي، وقد دهش لأنه لم يرَ السيد فارلي لأوّل وهلة وظنّ الحجرة خالية، ولم يلبث أن

لمح حذاء بارزاً من خلف المكتب والمكتب موضوع أمام النافذة، فتقدّم مسرعاً إلى الحجرة واكتشف وجود السيد فارلي مُلقىً هناك جثّة هامدة وبجانبه مسدّس، وعندئذ أسرع السيد كورنويرذي إلى خارج الغرفة وطلب من السائق استدعاء الطبيب فليت هاتفياً، كما اتصل السيد كورنويرذي بالشرطة بناء على مشورة الطبيب.

فقال بوارو: هل سمع صوت الرصاص؟

- لا؛ فحركة المرور شديدة في هذه المنطقة ولها ضجيج مرتفع وكانت النافذة مفتوحة، ومع ضجيج حركات الحافلات وأبواق السيارات فإنه يتعذّر جداً ملاحظة صوت كهذا.

وأومأ بوارو مفكّراً ثم سأل: في أيّ وقت يُظَنّ أنه مات؟

فأجاب الطبيب فليت: لقد فحصت الجثة حالما وصلت إلى هنا، أي في الساعة الرابعة والدقيقة الثانية والثلاثين، فوجدت أن السيد فارلي قد توُفّي قبل ذلك بساعة على الأقل.

ولاحت على وجه بوارو أمارات الرصانة الشديدة وقال: إذن فيبدو من المحتمل أن وفاته حدثت في الوقت الذي ذكره لي، أي في الساعة الثالثة والدقيقة ٢٨!

فقال الطبيب فليت: بالضبط.

- وهل وجدتَ أيّ بصمات على المسدّس؟

- نعم، بصماته هو.

- والمسدّس؟

فاستأنف المفتش الكلام قائلاً: كان مسدّساً يحتفظ فيه في الدُّرج الثاني الأيمن من مكتبه، تماماً كما أخبرك. وقد تعرّفَت السيدة فارلي على المسدّس، وفضلاً عن هذا فهناك مدخل واحد للحجرة هو الباب المؤدّي إلى البهو، وكان الصحفيان جالسَين في مواجهة هذا الباب بالضبط، وقد أقسما أنه لم يدخل أحد الحجرة منذ اللحظة التي تكلّم فيها السيد فارلي معهما إلى وقت دخول السيد كورنويرذي إليها بعد الساعة الرابعة بقليل.

- إذن فكلّ الظروف تشير إلى أن السيد فارلي قد انتحر، أليس كذلك؟

فابتسم المفتش بارنيت ابتسامة يسيرة قائلاً: ما كان يوجد شك في هذا لولا مسألة واحدة.

- وهي؟

- الرسالة التي أُرسِلت إليك.

فابتسم بوار وقال: فهمت قصدك، حيثما يكون هيركيول بوارو تقوم الشبهات في الحال بوجود جريمة قتل!

فقال المفتش بجفاء: تماماً، وعلى أيّ حال فبعد أن أوضحتَ لنا الموقف...

فقاطعه بوارو قائلاً: لحظة واحدة.

والتفت إلى السيدة فارلي قائلاً: هل حدث مرة أن زوجك أُجري له تنويم مغناطيسي؟

- لا.

- هل درس موضوع التنويم المغناطيسي؟ هل كان له اهتمام بهذا الموضوع؟

فهزّت رأسها قائلة: لا أظن هذا!

وفجأة بدت كأن رباطة جأشها قد انهارت، فراحت تقول: ذلك الحلم الشنيع! شيء مروّع أن يحلم نفس الحلم ليلة بعد ليلة ثم يبدو كأنه كان يُساق إلى موته!

فتذكّر هيركيول بوارو ما قاله بنديكت فارلي: "أشعر دائماً أنه لا بدّ لي من أن أفعل هذه الفعلة وأن أضع نهاية لحياتي"، فقال للأرملة: هل خطر لكِ مرة أن زوجك قد ينتابه ما يدعوه إلى التخلّص من حياته؟

- لا، على الأقلّ كان يبدو في حالة غريبة جداً، وذلك أحياناً.

وعندئذ تدخّلَت جوانا فارلي مقاطِعة بلهجة تدلّ على الازدراء الواضح: ما كان أبي ليقتل نفسه، لقد كان شديد الاهتمام بنفسه.

فقال الطبيب فليت: أتعرفين يا آنسة فارلي أنه ليس الناس الذين يهدّدون بالانتحار هم الذين يفعلون هذا عادة؟ وهذا هو السبب في أن حوادث الانتحار تبدو أحياناً لا تفسير لها.

ولم يلبث بوارو أن نهض قائماً وقال: هل من المسموح أن أرى الحجرة التي حدثَت فيها الفاجعة؟

- بالتأكيد، كُن معه أيها الطبيب.

فتولّى الطبيب فليت مرافقة بوارو إلى الطابق الأوّل، وكانت حجرة بنديكت فارلي أكبر حجماً من حجرة السكرتير المجاورة، وكانت مؤثثة بأثاث فاخر وبها مقاعد وثيرة مكسوّة بالجلد ذات مسندَين وسجّادة سميكة ومكتب فخم كبير الحجم.

وخطا بوارو إلى خلف المكتب حيث كانت بقعة قاتمة على السجّاد تبدو أمام النافذة، وقد تذكّر في تلك اللحظة قول المليونير له: "الساعة الثالثة والدقيقة ٢٨ أفتح الدرج الثاني الأيمن وآخذ المسدّس الذي أحتفظ به فيه وأحشوه ثم أتقدّم إلى النافذة، وعندئذ أطلق النار على نفسي!"، فأومأ بوارو برأسه ببطء ثم قال: هل كانت النافذة مفتوحة كما هي الآن؟

- نعم، لكن لم يكن بإمكان أيّ أحد أن يدخل عن طريقها.

فأطلّ بوارو برأسه، ولم تكن للنافذة حافّة ولا حاجز ولا توجد مواسير مياه بقربها، لم يكن حتى بإمكان قطّة أن تدخل من هذا الطريق، وكان أمامها جدار المصنع مصمتاً لا نوافذ به من أيّ نوع.

وقال الطبيب فليت: يا لها من حجرة غريبة يختارها رجل غنيّ لمكتبه الخاصّ وهي بهذا المنظر المواجه لها كأن الإنسان يطلّ منها على حائط سجن!

فقال بوارو: أجل.

وأدخل رأسه من النافذة وجعل يحدّق برهة إلى الحائط المترابط الصلد أمامه قائلاً: أظن أن هذا الحائط مهمّ.

فنظر إليه الطبيب فليت بعَجب وقال: أتعني من الناحية النفسية؟

وكان بوارو قد تحرّك ناحية المكتب، وبحركة متراخية متكاسلة امتدّت يده إلى ملقطة وضغط على مقبضها، فانطلقت منها اللاقطة الشبكية الطويلة حتى آخرها، والتقط بها بكل رقّة عود ثقاب محترق كان ملقى بجانب مقعد على مسافة بضع خطوات وحمله بعناية إلى سلّة المهملات، فلم يتمالك الطبيب فليت أن قال مستاء: عندما تنتهي من اللعب بهذه الأشياء...

فقاطعه هيركيول بوارو قائلاً: هذا اختراع يدلّ على الحذق.

وأعاد الملقطة بعناية إلى مكانها فوق المكتب ثم سأل: أين كانت السيدة فارلي والآنسة فارلي في وقت الوفاة؟

- كانت السيدة فارلي تستريح في غرفتها في الطابق الذي يعلو هذا، وكانت الآنسة فارلي ترسم إحدى اللوحات في حجرة الرسم الخاصة بها في أعلى المنزل.

وأخذ هيركيول بوارو ينقر بإصبعه على المكتب برهة وقال: أحبّ أن أرى الآنسة فارلي، هل يمكنك أن تطلب منها الحضور إلى هنا بضع دقائق؟

- كما شئت!

نظر إليه الطبيب فليت بدهشة ولكنه غادر الغرفة، وبعد قليل فُتح الباب ودخلت جوانا فارلي فقال لها بوارو: هل تمانعين يا آنسة في أن أسألك بعض الأسئلة؟

فردّت على نظرته بهدوء قائلة: لك أن تسأل عن كل ما تريد.

- هل كنت تعرفين أن والدك يحتفظ بمسدّس في مكتبه؟

- لا.

- وأين كنت أنت ووالدتك، أعني زوجة أبيك، أهذا صحيح؟

- نعم، لويز هي زوجة أبي الثانية، وهي لا تكبرني إلاّ بثمانية أعوام. كنت تريد أن تسأل...

- أين كنتِ أنت في يوم الخميس من الأسبوع الماضي، يوم الخميس ليلاً؟

فأخذت تفكّر برهة ثم قالت: يوم الخميس؟ دعني أتذكّر. نعم، لقد ذهبنا إلى المسرح لحضور مسرحية «كلب صغير يضحك».

- ألم يقترح والدك أن يصاحبكما؟

- إنه لم يكن يذهب إلى المسارح أبداً.

- وماذا كان يفعل عادة في الأمسيات؟

- كان يجلس هنا ويقرأ.

- ألم يكن رجلاً اجتماعياً يحب معاشرة الناس؟

فنظرت إليه الفتاة مباشرة وأجابت: والدي كانت له شخصية منفردة، لم يكن في وسع أحد اتصل به عن قرب أن يحبّه.

- هذا كلام صريح جداً يا آنسة!

- أنا أوفّر عليك الوقت يا سيد بوارو وأدرك تماماً ما ترمي إليه. إن زوجة أبي قد تزوّجته من أجل أمواله، وأنا أقيم هنا لأنه ليس لي مكان آخر غير هذا أقيم فيه، وهناك رجل أحبّ أن أتزوّجه، وهو رجل فقير، وقد حرص أبي على طرده من العمل الذي يكسب منه قُوته؛ فهو يريد أن أتزوّج حسب مشيئته، ولن يكون هذا الزواج صعباً لأن المقدّر أن أكون وريثته.

- هل تؤول إليك ثروة والدك؟

- نعم، لقد ترك لزوجته لويز ربع مليون خالية من الضرائب، وهناك هِبَات أخرى في الوصية ولكن باقي التركة يؤول إليّ.

وابتسمَت فجأة وأضافت قائلة: وهكذا ترى يا سيد بوارو أن كل الأسباب كانت تجعلني أرغب في وفاة والدي.

- أرى يا آنسة أنك ورثتِ ذكاء والدك.

فقالت مفكّرة: كان والدي ذكياً وكانت له قوّة دافعة متسلّطة، لكنها انقلبت إلى الجانب السيّئ، فلم يكن لديه أيّ إحساس إنساني.

فقال بوارو بصوت خافت: يا إلهي، ما أشدّ غبائي!

ولم تلبث جوانا فارلي أن استدارت إلى الباب قائلة: هل هناك شيء آخر؟

- هناك سؤالان صغيران يا آنسة.

وتناول الملقطة الشبكية قائلاً: هذه الملقطة يا آنسة، هل كانت توجد دائماً على المكتب؟

- نعم، كان أبي يستعملها لكي يلتقط بها الأشياء؛ فهو لم يكن يحب الانحناء.

- سؤال واحد أخير، هل كان والدك سليم النظر؟

فحدّقت الفتاة إليه ثم أجابت: لا، لم يكن في قدرته أن يبصر بالمرة، أقصد أنه لم يكن في قدرته أن يبصر دون نظارته، كان نظره دائماً ضعيفاً منذ الطفولة.

- ولكن مع النظارة...

- نعم، كان بإمكانه أن يبصر بها تماماً.

- هل كان بإمكانه قراءة الجرائد والمطبوعات الدقيقة؟

- نعم.

- هذا كل شيء يا آنسة.

فخرجَت الفتاة من الحجرة على الأثر وغمغم بوارو لنفسه قائلاً: كم كنت غبياً! لقد كانت هناك طوال الوقت تحت أنفي! ولكونها كانت قريبة جداً لم يكن في قدرتي أن أراها!

وأطلّ من النافذة مرة ثانية فوقع نظره في أرض الممشى الضيّق بين المنزل والمصنع على جسم صغير أسود، فلم يملك هيركيول بوارو إلا أن أومأ برأسه راضياً ثم هبط إلى الطابق الأرضي مرة ثانية.

* * *

كان الآخرون لا يزالون في قاعة المكتبة، فاتجه بكلامه إلى السكرتير قائلاً: أريد منك يا سيد كورنويرذي أن تحكي لي من جديد الظروف الكاملة لاستدعاء السيد فارلي لي، وعلى سبيل المثال متى أملى السيد فارلي ذلك الخطاب؟

- بعد ظُهر الأربعاء، في الساعة الخامسة والنصف فيما أتذكّر.

- هل كانت هناك تعليمات خاصة بخصوص إرساله بالبريد؟

- لقد طلب منّي أن أضعه في البريد بنفسي.

- وهل فعلتَ هذا؟

- نعم.

- هل أعطى أية تعليمات خاصة للساقي بخصوص استقبالي؟

- نعم، طلب منّي أن أخبر هولمز الساقي أن زائراً سوف يأتي في الساعة التاسعة والنصف، وكان عليه أن يستفهم عن اسم الزائر وأن يطلب رؤية الخطاب.

- هذه احتياطات أقرب إلى الغرابة، ألا تظن هذا؟

فهزّ كورنويرذي كتفيه وقال مدقّقاً: بلى، فالسيد فارلي كان أقرب إلى الغرابة في أطواره.

- هل كانت هناك تعليمات أخرى؟

- نعم، طلب منّي أن أخرج للراحة في فترة المساء.

- وهل فعلت هذا؟

- نعم، ذهبت إلى دار العرض بعد العشاء مباشرة.

- ومتى رجعت؟

- رجعت نحو الساعة الحادية عشرة والربع.

- هل رأيت السيد فارلي مرة ثانية تلك الليلة؟

- لا.

- هل ذكرت له هذا الموضوع في صباح اليوم التالي؟

- لا.

وتوقف بوارو برهة، ثم استأنف أسئلته قائلاً: عندما وصلت أنا إلى هنا في الموعد المحدّد لي لم يُدخلني الساقي إلى حجرة السيد فارلي الخاصة.

- أجل، فقد طلب منّي أن أقول لهولمز أن يُدخلك إلى حجرتي.

- وهل تعرف لماذا كان هذا؟

فهزّ كورنويرذي رأسه وقال بجفاء: أنا لم أكن أناقش أوامر السيد فارلي؛ فقد كان يستاء لو فعلت هذا.

- هل كان من عادته استقبال الزائرين في حجرته الخاصة؟

- عادة، لكن ليس دائماً، وأحياناً كان يستقبلهم في حجرتي.

- هل كان هناك أيّ سبب لذلك؟

فأخذ هوغو كورنويرذي يفكّر برهة ثم أجاب: لا، لا أظن ذلك. في الحقيقة لم أفكّر مرة في هذه المسألة.

ثم التفت بوارو إلى السيدة فارلي وقال لها: هل تسمحين بأن أضرب الجرس وأطلب الساقي؟

- بالتأكيد يا سيد بوارو.

فأقبل هولمز وقال بأدب واحترام: هل ضربتِ الجرس يا سيدتي؟

فأشارت السيدة فارلي إلى بوارو بإيماءة من يدها، فالتفت إليه هولمز قائلاً بأدب: ماذا يا سيدي؟

- ما هي التعليمات التي كانت مبلَّغة إليك يا هولمز يوم الخميس ليلاً عند حضوري إلى هنا؟

فتنحنح هولمز ثم أجاب قائلاً: بعد العشاء أخبرني السيد كورنويرذي أن السيد فارلي ينتظر زائراً باسم السيد هيركيول بوارو في الساعة التاسعة والنصف، وكان عليّ أن أتأكّد من اسم الزائر وشخصيته برؤية خطاب ثم بعد ذلك أُدخله إلى حجرة السيد كورنويرذي.

- هل طلب منك أيضاً أن تطرق الباب؟

فلاحت على وجه الساقي علامات الاستياء وهو يقول: كان هذا أحد الأوامر الصادرة من السيد فارلي! كان عليّ دائماً أن أطرق الباب عند إدخال الزائرين.

ثم أضاف موضّحاً: أعني الزائرين للأعمال.

- نعم، وهذا ما أدهشني. هل صدرت إليك تعليمات أخرى بشأني؟

- لا يا سيدي، فبعد أن ذكر لي السيد كورنويرذي البيانات التي قلتها لك الآن خرج.

- متى كان هذا؟

- في الساعة التاسعة إلا عشر دقائق يا سيدي.

- هل رأيت السيد فارلي بعد ذلك؟

- نعم يا سيدي، ذهبت إليه بكوب ماء ساخن كالمعتاد في الساعة التاسعة.

- هل كان حينها في حجرته الخاصة أم في حجرة السيد كورنويرذي؟

- كان في حجرته الخاصة يا سيدي.

- ألم تلاحظ شيئاً غير عاديّ في الحجرة؟

- شيء غير عادي؟ لا.

- أين كانت السيدة فارلي والآنسة فارلي؟

- ذهبتا إلى المسرح يا سيدي.

- أشكرك يا هولمز، هذا يكفي.

فانحنى هولمز وغادر القاعة، فالتفت بوارو إلى أرملة المليونير قائلاً: سؤال آخر يا سيدة فارلي، هل كان زوجك

سليم النظر؟

- لا، كان يستعمل نظّارة.

- هل كان عنده قصر نظر شديد؟

- نعم، كان يعجز تماماً بلا نظارته.

- هل كانت عنده مجموعة نظارات؟

- نعم.

- نعم!

قال بوارو هذا ثم مال إلى الخلف قائلاً: أظن أن هذا هو نهاية القضية.

وخيّم الصمت في القاعة، وراح الجميع ينظرون إلى الرجل القصير الذي جلس مكانه هادئاً يفتل شاربه. لقد تجلّت الحيرة في وجه المفتش، وبدا الطبيب مقطباً، وأخذ كورنويرذي يحدّق وهو لا يفهم شيئاً، وكانت السيدة فارلي تنظر بدهشة بالغة، وتجلّى الاهتمام في وجه جوانا فارلي. ولم تلبث السيدة فارلي أن قطعت حبل الصمت قائلة بصوت يخامره الاستياء: لست أفهم يا سيد بوارو! إن الحلم...

فقال بوارو مقاطعاً: أجل، الحلم كان مهمّاً جداً.

فارتعدت السيدة فارلي وقالت: أنا لم أؤمن في حياتي قطّ بأيّ شيء يتصل بخوارق الطبيعة، أمّا الآن فكون الإنسان يرى ليلة بعد ليلة نفس الحلم!

فقال الطبيب فليت: هذا شيء خارق للعادة!

وسعل الطبيب ارتباكاً، ثم سارع بالعودة إلى أسلوبه الطبّي قائلاً: معذرة يا سيدة فارلي، لو لم يكن فارلي نفسه قد أخبرك بهذه القصّة...

فقال بوارو: بالضبط.

قال هذا وقد فتح عينيه نصف المغمَضتين فجأة، فبدا لونهما شديد الخضرة وهو يضيف قائلاً: لو لم يخبرني بنديكت فارلي...

وتوقّف برهة وهو يدير نظره في الوجوه المدهوشة من حوله ثم قال: هناك أشياء معيّنة حدثت في تلك الليلة عجزت تماماً عن تفسيرها، أولاً: ما سبب الاهتمام بأن أحضر ومعي ذلك الخطاب؟

فأبدى كورنويرذي رأيه قائلاً: للتأكّد من الشخصية.

- لا، لا يا عزيزي الشاب، هذه الفكرة مضحكة حقاً، لا بدّ من وجود سبب آخر أكثر سداداً، ذلك لأن السيد فارلي لم يطلب فقط إبراز ذلك الخطاب، بل لقد طلب بوضوح أن أتركه قبل انصرافي، وفضلاً عن ذلك فهو رغم هذا لم يتخلّص من الخطاب، لقد عُثر عليه بين أوراقه بعد ظُهر اليوم، فلماذا احتفظَ به؟

فتدخّلت جوانا فارلي وقالت: لقد أراد -في حالة حدوث شيء له- أن تعرف الحقائق المتصلة بحلمه الغريب.

فأومأ بوارو موافقاً وقال: أنت بارعة يا آنسة، لا بدّ أن يكون هذا (ولا يمكن أن يكون غيره) هو سبب الاحتفاظ بالخطاب، إذا

توُفّي السيد فارلي فلا بدّ أن تعرَف حكاية ذلك الحلم الغريب. لقد كان هذا الحلم مهمّاً جداً، كان حيوياً يا آنسة.

ثم استطرد هيركيول بوارو قائلاً: سأنتقل الآن إلى النقطة الثانية. بعد أن استمعت إلى قصّة السيد فارلي طلبت منه أن يريني المكتب والمسدّس، وقد همّ بالنهوض كي يفعل هذا ثم رفض فجأة، فلماذا رفض؟

وفي تلك المرة لم يتقدّم أحد من الحاضرين بجواب، فقال بوارو: سوف أضع هذا السؤال بصيغة أخرى، ما الذي كان هناك في تلك الحجرة مما لم يكن السيد فارلي يحب أن أراه؟

ومرة أخرى ساد الصمت في القاعة فقال بوارو: نعم، هذا سؤال صعب، ومع ذلك كان هناك سبب لذلك، سبب خطير يدعو السيد فارلي إلى استقبالي في حجرة سكرتيره ويرفض بشدّة الذهاب معي إلى حجرته الخاصة. كان في تلك الحجرة شيء لم يكن يستطيع بحال أن يدَعني أراه.

وسكت بوارو لحظة ثم قال: والآن أنتقل إلى النقطة الثالثة التي لا تفسير لها والتي حدثت تلك الليلة، لقد طلب مني السيد فارلي عند انصرافي أن أردّ إليه الخطاب الذي تلقّيته منه، وقد حدث من باب السهو أنني سلّمته خطاب اعتذار جاءني من الكوّاء الذي أتعامل معه، فألقى عليه نظرة ووضعه بجانبه. وقُبيل مغادرتي الحجرة اكتشفت غلطتي وبادرت بإصلاحها، وبعد ذلك انصرفت من المنزل. وأعترف بأنني كنت في حيرة شديدة؛ فالقضية كلّها -وخصوصاً تلك الحادثة الأخيرة- بدت لي شديدة الغموض بعيدة عن أيّ تفسير!

وراح هيركيول بوارو يدير نظره في الحاضرين واحداً بعد الآخر قائلاً: ألا ترون هذا معي؟

فتولى الطبيب فليت الردّ قائلاً: كل ما أراه يا بوارو سؤال، ما العلاقة بين القضية وكوّاء قمصانك؟!

فقال بوارو: كوّاء قمصاني كانت له أهمية كبرى، فهذا الكوّاء المهمل الذي يتلف ياقاتي أسدى لأوّل مرة في حياته خدمة جليلة. لا شك أنكم تفهمون الآن؛ فالمسألة غاية في الوضوح. لقد ألقى السيد فارلي نظرة على خطاب الكوّاء، ونظرة واحدة كانت تكفي كي يعرف أنه الخطاب المغلوط، ومع ذلك فهو لم يميّز شيئاً، فلماذا؟ لأنه لم يتمكّن من أن يبصر الخطاب بنظرة سليمة.

فقال المفتش بارنيت بحدّة: ألم يكن وقتها يلبس نظارته؟

فابتسم بوارو وأجاب قائلاً: كان يلبسها، وهذا ما يجعل المسألة شديدة الطرافة!

ومال بوارو إلى الأمام وراح يقول: كان حلم السيد فارلي مهمّاً جداً، كان يحلم بأنه ينتحر، وبعد فترة قصيرة أقدم على الانتحار فعلاً. وبعبارة أخرى كان وحده في حجرته، وقد عُثر عليه فيها وبجانبه مسدّس، ولم يدخل أحد تلك الحجرة أو يخرج منها في الوقت الذي انطلقَت فيه الرصاصة، فما معنى هذا؟ معناه أنه لا بدّ أن يكون حادث انتحار.

فقال الطبيب فليت: أجل.

فهزّ هيركيول بوارو رأسه قائلاً: بالعكس، كان جريمة قتل

غير عادية ومدبّرة بذكاء شديد.

ومرة أخرى مال إلى الأمام وجعل ينقر المائدة بإصبعه وقد بدت عيناه شديدتَي الخضرة والبريق وأخذ يقول: لماذا لم يسمح لي السيد فارلي بأن أدخل إلى حجرته الخاصة في تلك الليلة؟ ما الذي كان فيها مما لم يكن مسموحاً لي بأن أراه؟ أظن يا أصدقائي أن الذي كان في الحجرة هو... بنديكت فارلي ذاته.

وابتسم في الوجوه المدهوشة من حوله واستطرد يقول: نعم، ليس ما أقوله من قَبيل الكلام الفارغ. لماذا لم يتمكّن السيد فارلي الذي كنت أتكلّم معه من تمييز الفرق بين خطابَين مختلفَين كل الاختلاف؟ السبب يا أصدقائي أنه كان رجلاً سليم النظر يلبس نظارة قوية العدسة جداً، وتلك العدسات تجعل الإنسان السليم النظر في عمىً تام، أليس كذلك أيها الطبيب؟

- هو هكذا بالطبع!

فمضى بوارو يقول: ما الذي جعلني أشعر وأنا أتكلّم مع السيد فارلي بأنني أتكلّم مع مهرّج؟ مع ممثّل يلعب دوراً تمثيلياً؟ لقد كان فعلاً يلعب دوراً تمثيلياً. تصوّروا المسرح الذي أُعدّ للدور التمثيلي، الحجرة المعتِمة الخافتة الضوء، والمصباح المظلّل باللون الأخضر والذي سُلّط ضوؤه القوي الذي يعمي البصر بعيداً عن الشخص الجالس في المقعد. وماذا رأيت أيضاً؟ المعطف المرقّع الألوان المشهور، الأنف المنقاري الذي كان من السهل تزييفه بمعجون الأنف المعروف في عالم التنكّر، خصلة الشعر الأبيض التي تعلو الرأس، العدسات السميكة التي تحجب العينين. ما الدليل على أن السيد فارلي رأى ذلك الحلم؟ فقط

تلك القصّة التي قيلت لي، وشهادة السيدة فارلي. ما الدليل على أن السيد بنديكت فارلي كان يحتفظ بمسدّس في دُرج مكتبه؟ مرة أخرى فقط تلك القصّة التي قيلت لي، وشهادة السيدة فارلي. هناك شخصان أخذا على عاتقهما هذه العملية من أوّلها إلى آخرها هما السيدة فارلي وهوغو كورنويرذي، فهوغو كتب ذلك الخطاب الذي أرسله إليّ وأعطى التعليمات التي أُبلغَت للساقي، وتظاهر بالخروج للذهاب إلى دار العرض ولكنه عاد إلى المنزل مباشرة ودخل بمفتاح، ثم ذهب إلى حجرته وأعدّ أدوات التنكّر اللازمة وقام بتمثيل شخصية بنديكت فارلي.

ونظر بوارو في وجوه الحاضرين وأردف يقول: والآن ننتقل إلى تلك الليلة. الفرصة التي كان السيد كورنويرذي ينتظرها قد سنحت فعلاً، فهناك شاهدان كانا جالسَين أمام الحجرة يمكن أن يُقْسِما أنهما لم يشهدا أحداً يدخل إلى الحجرة التي بها السيد فارلي أو يخرج منها، ويجلس السيد كورنويرذي منتظراً فترة تشتدّ فيها حركة المواصلات في الخارج ويعلو ضجيجها، وعندئذ يطلّ من نافذته ويمسك بواسطة الملقطة الشبكية التي كان قد أخذها خلسة من فوق المكتب الموجود في الحجرة المجاورة، ويمسك بها شيئاً معيّناً يحّركه أمام نافذة حجرة سيّده، وهنا يدنو بنديكت فارلي من النافذة فيطلق عليه كورنويرذي رصاصة من المسدّس الذي كان جاهزاً في يده وذلك في صميم ضجيج حركة مرور الحافلات. ولنتذكّر جميعاً أنه يوجد في الناحية المواجهة حائط واحد مصمّم بلا أيّ نوافذ، وهكذا لا يمكن وجود شاهد على الجريمة. وينتظر كورنويرذي نصف ساعة ثم يجمع بعض الأوراق ويخفي بينهما الملقطة والمسدّس، ثم

يخرج إلى الردهة ومنها إلى الحجرة المجاورة ويعيد الملقطة الشبكية إلى مكانها فوق المكتب، ويلقي بالمسدّس على الأرض بعد إلصاق بصمات أصابع القتيل، ثم يهرول خارجاً ليعلن نبأ انتحار السيد فارلي. وهو يعوّل على أن يُعثَر على الخطاب الذي أُرسل إليّ وعلى أنني سوف أجيء بتلك القصّة التي سمعتها من شفتَي السيد فارلي نفسه عن ذلك الحلم الغريب وعن الإغراء القويّ الذي يشعر به لقتل نفسه بيده! وسيكون هناك بعض الناس ممن يصدّقون نظرية التنويم المغناطيسي، ولكن النتيجة النهائية سوف تؤيّد بما لا يدَع مجالاً للشكّ أن اليد الحقيقية التي أمسكت بالمسدّس كانت يد بنديكت فارلي نفسه.

واتجه هيركيول بوار بنظره إلى وجه الأرملة وقد ارتسمت عليها آيات الفزع والخوف الأعمى وبدا لونها شديد الامتقاع، ثم اختتم حديثه قائلاً برقّة: وفي الوقت المناسب كانت النهاية السعيدة آتية لا ريب فيها، ربع مليون، وقلبان يخفقان كقلب واحد!

* * *

سار هيركيول بوارو والطبيب فليت معاً على امتداد الجانب الخلفي للمنزل نورث واي هاوس. كان عن يمينهما الجدار الشاهق للمصنع وعن يسارهما بدت النوافذ العليا لحُجرتَي بنديكت فارلي وهوغو كورنويرذي، وتوقّف هيركيول بوارو والتقط جسماً صغيراً كان قطّة سوداء محشوّة بالقطن.

قال بوارو: هذا هو الشيء الذي حرّكه كورنويرذي بالملقطة الشبكية المدلاّة أمام نافذة فارلي، هل تتذكر أنه كان يكره القطط؟

كان من الطبيعي أن يندفع إلى ناحية النافذة.

فقال فليت: ولماذا لم يخرج كورنويرذي ويستردّ القطة المحشوّة بعد أن ألقاها من يده؟

- وكيف كان يمكنه أن يفعل هذا؟ فخطوة كهذه كانت تثير الشبهات قطعاً، وعلى أيّ حال لو أن القطّة المحشوّة عُثر عليها لكان الظنّ الغالب أن طفلاً جرّته قدماه إلى هذا المكان وسقطت منه.

فقال الطبيب فليت وهو يتنهّد: أجل، ربما كان هذا ما يظنه أيّ رجل عادي، لكن ليس هيركيول بوارو. هل تعرف أيها الحصان العجوز أنني كنت أظن حتى اللحظة الأخيرة أنك تقودنا إلى نظرية عجيبة من تلك النظريات النفسية التي يتشدّقون بها عن القتل بطرق الإيحاء؟ أراهن أن صاحبيَنا هذين كانا يظنان هذا أيضاً، فالأرملة فارلي انهارت تماماً وفقدت أعصابها بصورة مفاجئة، وكان يمكن أن يمضي كورنويرذي في المكابرة والإنكار لو أنها لم تستسلم للهستريا التي تملّكتها فجأة لتحاول تشويه جمال وجهك عندما هجمت عليك بأظافرها! لقد أبعدتها عنك قبل فوات الأوان.

وتوقّف الطبيب برهة ثم أضاف قائلاً: أنا أكثر إعجاباً بتلك الفتاة التي تسمّى جوانا، أعصابها قوية وذكاؤها حاضر، ولو أنني تقدّمت أخطب ودّها لقالوا إنني صيّاد مال.

فقال بوارو ضاحكاً: لقد جئتَ بعد فوات الأوان يا صديقي؛ فهناك شخص آخر احتلّ قلبها فعلاً، وموت والدها قد فتح أمامها أبواب السعادة.

– لو لم تكشف لنا اللغز لقلنا إنه كان لديها دافع قويّ للرغبة في التخلّص من الأب المكروه.

– الدافع والفرصة ليس فيهما الكفاية، لا بدّ أيضاً من توافر النزعة الإجرامية.

فقال الطبيب فيليت مداعباً: ترى هل يمكن يوماً أن ترتكب أنت جريمة قتل يا بوارو؟ أراهن أنك لو فعلتها لما استطاع أحد أن يكتشف القاتل!

فقال بوارو ضاحكاً: أخْجلتم تواضعي يا صديقي، أنت تعرف أن شيئاً كهذا هو المستحيل بعينه.

* * *

موت في البحر

- هذا هو الكولونيل كلابرتون.

قالها السيد فوريز بلهجة جمعَت التهكّم والاشمئزاز، فلم تملك الآنسة أليس هندرسون إلا أن مالت إلى الأمام وقد داعب هواء البحر خصلة من شعرها الذي تسلّل إليه المشيب، وقالت بخُبث متلذّذة: ألم يكن في الحرس الملكي؟

فانفجر السيد فوريز قائلاً: الحرس الملكي؟ الحرس الملكي؟! كلام فارغ، صاحبنا كان يعمل في المسرح الفكاهي، هذه هي الحقيقة، ثم التحق بالخدمة في أثناء الحرب وذهب إلى فرنسا ليُعِدّ علب التغذية للقوّات المحاربة، ثم ألقى الألمان قنبلة طائشة فعاد إلى إنكلترا بجرح سطحي في ذراعه، وبطريقة ما كان نصيبه العلاج في مستشفى السيدة كارنغتون.

- إذن كان هذا سبب التقائهما؟

- هذه هي الحقيقة، لقد لعب صاحبنا دور البطل الجريح، وكانت السيدة كارنغتون امرأة قليلة العقل كثيرة المال، كانت أرملة لم يمضِ على وفاة زوجها في الحرب أكثر من ستة أشهر، وقد استطاعَ هذا المخلوق أن يلعب بعقلها في فترة وجيزة، فسعت إلى إلحاقه بعمل في وزارة الحربية.

- وقبل الحرب كان يعمل في مسرح فكاهي؟!

قالت الآنسة هندرسون هذا متأمّلة وهي تتصوّر بعين الخيال الكولونيل كلابرتون الأنيق الأشيب الشعر وهو في صورة مُغَنٍّ فكاهي أحمر الأنف يغنّي أغنيات مثيرة والضحك.

فقال فوريز مرة أخرى: هذه هي الحقيقة التي سمعتها من مصادر متعدّدة نقلاً عن أشخاص موثوق بهم.

فأومأت الآنسة هندرسون ممتدحة: هذا يؤيّد معلوماتك بما فيه الكفاية.

والواقع أن ابتسامة عابرة طافت لحظة على وجه رجل قصير القامة للآنسة هندرسون، فهي قوية الملاحظة وقد رأت فيها تقديراً وفهماً لما لابَس عبارتها الأخيرة من تهكّم ضمنيّ، ذلك التهكّم الذي لم يفطن إليه محدّثها السيد فرويز بأية حال.

ولكن فوريز نفسه لم يفطن حتى إلى ابتسامة الرجل القصير، وما لبث أن نظر إلى ساعته ثم نهض قائلاً: حان وقت الرياضة والمشي، لا بدّ أن يبقى الإنسان في حالة لياقة صحيّة وهو في الباخرة.

ونظرَت الآنسة هندرسون إلى الرجل صاحب الابتسامة نظرة مهذّبة كان معناها أنها على استعداد للدخول في حديث مع زميل في الرحلة البحرية، فقال الرجل القصير: يا له من رجل نشيط!

فقالت الآنسة هندرسون: إنه يطوف بسطح الباخرة ٤٨ مرة بالتمام. يا له من ثرثار! ويقولون عنا أننا نحن الجنس المغرم بالكلام في الفضائح!

- يا له من افتراء!

فقالت الآنسة هندرسون بلهجة الفضول: الفرنسيون مهذّبون دائماً.

فتجاوب الرجل القصير معها في الحال قائلاً: أنا بلجيكي يا آنسة.

- أحقاً؟

- اسمي هيركيول بوارو، وأنا في خدمتك.

وأثار هذا الاسم لديها ذكرى ما، لا بدّ أنها سمعَت به من قبل، ولكن أين؟

- هل تستمتع بهذه الرحلة يا سيد بوارو؟

- بصراحة لا، وقد كان من البلاهة أن أسمح لنفسي بالمجيء؛ فأنا أكره البحر. هو لا يهدأ أبداً ولو دقيقة واحدة.

- لا بأس، لا بدّ أن تعترف أنه هادئ جدّاً في الوقت الحالي.

فاعترف بوارو بهذا على كره منه قائلاً: في اللحظة الحالية نعم، وهذا هو السبب في انتعاشي الحالي. أنا أعود إلى الاهتمام من جديد بما يدور حولي، طريقتك مع السيد فوريز مثلاً.

- أتعني...؟

وتوقّفت الآنسة هندرسون عن إتمام ما كانت تريد قوله فأحنى هيركيول بوارو رأسه قائلاً: أعني أسلوبك في انتزاع الفضائح. إنه أسلوب رائع.

فضحكَت الآنسة هندرسون ضحكة لا أثر فيها للخجل، ومالت إلى الأمام قائلة بلهجة مَن تفضي بسرّ: أعترف أنني أحبّ الفضائح، وكلّما كانت مثيرة كانت أفضل!

فراح بوارو ينظر إليها متأمّلاً، كانت نحيلة العود ذات عينين سوداوين يشعّ منهما بريق الذكاء والخُبث، وقد داعب الشيب الخفيف شعرها. كانت امرأة في الخامسة والأربعين، قانعة بأن تبدو في تلك السنّ.

وفجأة قالت أليس هندرسون: تذكّرت، ألست أنت المخبر السرّي المشهور؟

فانحنى بوارو قائلاً: أنت رقيقة يا آنسة.

لكنه لم يناقض كلامها فقالت: يا للغرابة، يا للإثارة! هل أنت وراء الأثر كما يقولون في القصص البوليسية؟ هل يوجد مجرم تخفّى بيننا؟

- عفواً، يؤسفني أن أخيّب توقّعاتك، ولكنني هنا ببساطة مثل أيّ مسافر آخر للاستجمام والاستمتاع.

قال بوارو هذا بلهجة مكتئبة حتى لم تملك الآنسة هندرسون إلا أن ضحكَت قائلة: لا بأس، سوف يكون بإمكانك أن تنزل إلى البرّ في ميناء نيقوسيا غداً. هل زُرت جزيرة قبرص من قبل؟

- مطلقاً يا آنسة.

وفجأة نهضت قائلة: أظن أنني سأنضمّ إلى السيد فوريز في نشاطه الرياضي.

فوثب بوارو تأدّباً واحتراماً فأومأت إليه برأسها إيماءة خفيفة وخرجت إلى سطح الباخرة.

لاحت على وجه بوارو نظرة شفّت عن الدهشة لكنها لم تدُم طويلاً وحلّت محلّها ابتسامة يسيرة، وما لبث أن نهض وأطلّ برأسه من الباب إلى سطح السفينة فشاهد الآنسة هندرسون واقفة مستندة إلى حاجز الباخرة تتحدّث مع رجل طويل القامة عسكري الهيئة. وزادت ابتسامة بوارو، وارتدّ إلى قاعة التدخين بنفس الكيفية التي تتبعها السلحفاة وهي تتقوقع داخل سطحها الصدفي، فقاعة التدخين كانت خالية له وحده في ذلك الوقت وإن كان واثقاً أن هذا لن يدوم طويلاً. وهذا ما حدث فعلاً، فقد أهلّت من الباب المؤدّي إلى المشرب السيدة كلابرتون، كان شعرها المتموّج محاطاً بشبكة تحفظ تموّجه وانسجامه، وكل ما فيها يدلّ على امرأة تستطيع دائماً أن تدفع أغلى الأسعار للحصول على كل ما تشتهي. قالت المرأة: جون! صباح الخير يا سيد بوارو، هل رأيت زوجي جون؟

- إنه على السطح الأمامي يا سيدتي، هل أستدعيه لك؟

لكنها استوقفته بإشارة قائلة: سأجلس هنا لدقيقة.

وجلست في المقعد المواجه له كما تجلس ملكة، كانت تبدو على البُعد وكأنها ابنة الثامنة والعشرين، أمّا عندما اقتربت منه وبرغم وجهها الذي بالغت في تجميله فلم تبدُ فقط في سنّها الحقيقة وهي التاسعة والأربعون، بل بدت كأنها في الخامسة والخمسين، وكانت عيناها زرقاوَين باهتتَين بحدقتَين ضيّقتَين. قالت له: من الأسف أني لم أرَك في أثناء العشاء في الليلة

الماضية، كانت المائدة تهتزّ أكثر الوقت بالطبع.

فقال بوارو بانفعال: بالضبط.

فقالت السيدة كلابرتون: من حسن الحظ أنني خبيرة بالبحر، وأقول من حسن الحظ لأنني لضعف قلبي يمكن أن أتعرّض للموت بسبب دوار البحر.

- هل عندك ضعف في القلب يا سيدتي؟

- نعم، ولا بدّ لي من مراعاة الاحتراس، يجب ألاّ أُجهِد نفسي كثيراً، كل الأطباء يقولون لي هذا.

ومضت السيدة كلابرتون تتوسّع في الحديث عن الموضوع المحبّب إليها دائماً وهو حالتها الصحّية قائلة: إن جون زوجي المسكين يُقلق نفسه كثيراً لمنعي من التعرّض لأيّ إجهاد، فأنا أعيش حياتي بالعرض إن كنت تدري ما أعني يا سيد بوارو.

- نعم، أدري.

- إنه يقول لي دائماً: "حاولي أن تقلّلي من مقدار طعامك يا أدلين"... لكن هذا ليس في قدرتي، لا بدّ أن نعيش حياتنا. والحقيقة أنني أجهدت نفسي كثيراً وأنا فتاة في أثناء الحرب. إن مستشفاي... هل سمعت عن المستشفى الخاص الذي أنشأته؟ لقد كان عندي ممرّضات ورئيسات وغير ذلك، ولكني كنت أشرف على كل شيء فيه بنفسي.

وتنهّدَت، فقال بوارو: إن حيويّتك مثيرة للإعجاب يا سيدتي العزيزة!

فضحكت السيدة كلابرتون ضحكة متصابية وقالت: كل الناس يقولون لي إنني أبدو في نضارة الشباب، كلام فارغ! أنا لا أتظاهر أبداً بأنني أقلّ يوماً واحداً عن سنّ الثالثة والأربعين، ولكن الكثيرين لا يصدّقون هذا ويقولون لي أنت آية في الحيوية والنشاط يا أدلين. لكن ماذا يكون الإنسان يا سيد بوارو إذا لم يكن نابضاً بالحياة والحيوية؟

فقال بوارو: يكون ميتاً.

فقطبت السيدة كلابرتون وجهها ولم يرُقها هذا الردّ، وقالت في نفسها: لا شك أن الرجل يريد أن يتفكّه أو يتظرّف.

ولم تلبث أن نهضت قائلة ببرود: لا بدّ أن أبحث عن جون.

وبينما هي تخرج من الباب إذ سقطت حقيبة يدها فانفتحت وتناثرت محتوياتها طولاً وعرضاً، فأسرع بوارو إلى نجدتها شأن رجل الشهامة والمروءة، وقد مضت دقائق قبل أن يجمع أنابيب أحمر الشفاه وعلب المساحيق وعلبة التبغ والولاّعة وغيرها من شتّى المقتنيات، فشكرته السيدة كلابرتون بأدب وخرجت إلى السطح منادية: جون!

كان الكولونيل كلابرتون لا يزال منهمكاً في حديثه مع الآنسة هندرسون، وسرعان ما استدار في مكانه وخفّ لملاقاة زوجته، وقد انحنى ليوفّر لها الحماية التامّة قائلاً: هل مقعدك القماشي في وضع مأمون؟ أليس الأفضل أن...

كان أسلوبه في الواقع مليئاً بالرعاية والاهتمام، لا شك

أنها زوجة معشوقة يدلّلها زوج متفانٍ في حبّه لها. ووقفت الآنسة هندرسون تنظر إلى الأفق وكأن فيه شيئاً يثير اشمئزازها، وكان هيركيول بوارو واقفاً عند باب قاعة التدخين ينظر إلى ما يدور، ولم يلبث أن سمع من خلفه صوتاً أجش مرتعشاً يقول لصاحبه: لو كنت زوج هذه المرأة لجئت بفأس وقطعت رقبتها!

كان هذا هو العجوز المعروف بين المسافرين الأصغر سناً في الرحلة باسم «جدّ مزارعي الشاي»، وقد أقبل توّاً إلى قاعة التدخين، وعلى الأثر نادى الساقي قائلاً: عليّ بكأس حالاً.

أما بوارو فقد انحنى كي يلتقط قصاصة ورق سقطت من حقيبة السيدة كلابرتون ولم تنتبه إليها، فرأى أنها جزء من قائمة دواء بها اسم عقار الديجيتالين، فوضعها في جيبه وفي نيّته أن يردّها إلى صاحبتها فيما بعد.

واستطرد المسافر العجوز قائلاً: نعم، إنها امرأة سامّة كالأفعى! أنا أتذكّر امرأة مثلها رأيتها في بونا، كان ذلك سنة ١٨٨٧.

فقال له بوارو: وهل ذهب إليها أحد بفأس؟

فهزّ العجوز رأسه بحزن قائلاً: لقد ظلّت تضايق زوجها حتى أنزلته إلى القبر في خلال سنة واحدة لا أكثر. على صاحبنا كلابرتون أن يُثبت شخصيته، فتصرّفاته تزيد زوجته غروراً.

فقال بوارو برصانة: مفتاح بيت المال في يدها.

فضحك العجوز قائلاً: لقد أحسنتَ تصوير الموقف، مفتاح بيت المال في يدها!

واندفعت إلى قاعة التدخين فتاتان إحداهما مستديرة الوجه منقّطة البشرة لها شعر أسود قد عبث به الهواء، والثانية كستنائية الشعر منقّطة الوجه مثلها. وهتفت إحداهما وتدعى كيتي موني: مساعَدة، مساعدة! أنا وباميلا سنتولى إنقاذ الكولونيل كلابرتون...

وأضافت باميلا لاهثة الأنفاس: مِن زوجته!

- في رأينا هو ضحيّة مسكينة...

- وزوجته مخيفة، فهي لا تترك له الفرصة كي يفعل أيّ شيء لنفسه...

- وإذا لم يكن في صحبتها سرعان ما تنقضّ عليه المرأة المدعوة هندرسون وتخطفه...

- إنها ظريفة حقاً، لكنها عجوز متصابية...

وأسرعت الفتاتان خارجتَين وهما تلهثان من الضحك مردّدتين كلماتهما: مساعَدة، مساعدة!

كانت تلك النجدة أو عملية إنقاذ الكولونيل كلابرتون من ظروفه المحزنة شُغل الفتاتين الشاغل، ففي نفس ذلك المساء جاءت باميلا كريغان التي لم تتجاوز الثامنة عشرة إلى هيركيول بوارو وغمغمت تقول له: عليك بتشديد المراقبة يا سيد بوارو، فهو سوف يُنتزَع من تحت أنف زوجته ويؤخَذ إلى السطح للنزهة في ضوء القمر.

وفي نفس اللحظة كان الكولونيل يقول لزوجته: أراهنك على ثمن سيارة رولز رويس أن سيارتي...

وسرعان ما قاطعته السيدة كلابرتون بصوتها الحادّ الأجش قائلة: تقصد سيارتي أنا يا جون.

فلم يُبدِ الزوج أيّ استياء من فظاظتها، والظاهر أنه اعتاد على ابتلاع تلك الإهانات بحكم الزمن، أو أنه... وهذا فعلاً ما قاله بوارو لنفسه وهو يتأمّل: أو أنه...

أمّا كلابرتون فقد أحنى رأسه لزوجته واختتم موضوع المناقشة قائلاً بغير أدنى ضيق أو حرج: بالتأكيد سيارتك يا عزيزتي.

وطرح اقتراحاً للعلب البريدج، وتكوّنت المجموعة من السيدة كلابرتون والسيد فوريز واثنين من فريق الرحلة لهما أعين الصقور، أمّا الآنسة هندرسون فقد اعتذرت وخرجت إلى سطح الباخرة، فقال السيد فوريز للسيدة كلابرتون متردّداً: وماذا عن زوجك؟

- جون لن يلعب البريدج، وهذه سخافة منه.

وبدأ اللاعبون خلط الأوراق، وانقضّت باميلا وكيتي على الكولونيل كلابرتون وأمسكتا بذراعيه، فقالت باميلا: سوف تأتي معنا إلى السطح، حيث ضوء القمر!

فقالت السيدة كلابرتون: لا تكن أحمق يا جون، سوف تتعرّض للبرد.

فقالت كيتي: لن يتعرّض للبرد وهو معنا.

فذهب معهما ضاحكاً، وخرج بوارو إلى السطح فوجد الآنسة هندرسون واقفة مستندة إلى حاجة الباخرة وقد نظرت إليه

متشوّقة عندما اقترب منها ووقف بجانبها، ولم تَفُتْهُ نظرة الكآبة التي كانت تبدو في عينيها. وتجاذبا الحديث فترة، وعندما لزم الصمت سألته: ما الذي تفكّر فيه؟

فأجاب بوارو: أراجع معرفتي باللغة الإنكليزية، سمعت السيدة كلابرتون تقول إن جون لن يلعب البريدج، أليس التعبير الصحيح هو أن تقول: «لا يمكنه أن يلعب»؟

فقالت بجفاء: إنها تعتبر عدم لعبه إهانة لها فيما أظنّ، لقد ارتكب هذا الزوج حماقة بالزواج منها.

فابتسم بوارو في الظلام وقال: أليس من رأيك أن هذا الزواج قد يكون موفّقاً؟

- الزواج بامرأة مثل هذه؟!

فهزّ بوارو كتفيه قائلاً: كم من امرأة كريهة لها زوج متفانٍ مخلص! هذا لغز من ألغاز الطبيعة. لا بدّ أن تعترفي أنه لا شيء يمكن أن يثيره مما تقوله أو تفعله.

وكانت الآنسة هندرسون تفكّر في الردّ عندما انبعث صوت السيدة كلابرتون من نافذة قاعة التدخين وهي تقول: لا، لا أظن أنني سألعب دورة ثانية؛ فالجوّ هنا حارّ خانق. سأخرج إلى السطح لاستنشاق شيء من الهواء.

وفجأة قالت الآنسة هندرسون لبوارو: طابت ليلتك، سأذهب للنوم.

واختفت من أمامه مسرعة، وتمشّى بوارو الهوينى إلى صالة الجلوس التي كانت خالية إلا من الكولونيل كلابرتون

والفتاتَين، وكان يؤدّي أمامهما ألعاباً بالورق تدلّ على خفّة اليد والبراعة، وعندئذٍ تذكّر بوارو ما ذكره السيد فوريز عن ماضي حياة كلابرتون في المسرح الترفيهي، فقال له بوارو: أراك تستمتع بلعب الورق رغم أنك لا تلعب البريدج.

فقال كلابرتون وقد تزايدت ابتسامته الساحرة: عندي أسبابي الخاصة لعدم لعب البريدج، سأريكم. سنلعب دورة صغيرة.

ورتّب الأوراق بسرعة ووضعها أمامهم، ثم مدّ يده إلى أوراقه وتبعه الباقون فكان نصيب كيتي مجموعة الإسبان كلّهم، ونصيب بوارو مجموعة الكوبة، ونصيب باميلا مجموعة الديناري، أمّا نصيبه هو فكان مجموعة البستوني. وقال لهم: هل رأيتم؟ الرجل الذي يمكنه أن يوزّع على شريكه في اللعب وعلى خصومه أيّ أوراق يريدها يحسن به أن ينسحب إذا كانت لعبة ودّية؛ فالحظ إذا حالفه أكثر من اللازم ساءت العلاقات الودّية حتماً.

فقالت كيتي مبهورة: كيف يمكنك أن تفعل كل هذا؟ الأوراق كلّها كانت تبدو طبيعية!

فقال بوارو: خفّة اليد تخدع العين.

وفي طرفة عين لمح ذلك التغيير المفاجئ الذي بدا في ملامح كلابرتون وكأنه نسي لحظة أن يأخذ حذره، ولم يملك بوارو إلا أن ابتسم؛ فالحاوي قد بدا له بجلاء من خلال قناع الرجل الوديع المسالم.

* * *

وصلت الباخرة إلى ميناء نيقوسيا في فجر اليوم التالي، وعندما خرج بوارو بعد الإفطار وجد الفتاتَين على أهبة النزول إلى البرّ، وكانتا منهمكتَين في الحديث مع الكولونيل كلابرتون. قالت كيتي تحثّه: لا بدّ أن ننزل الآن، سوف تأتي معنا، أليس كذلك؟ لا يمكن أن تتركنا ننزل إلى البرّ وحدنا، فقد يحدث لنا أيّ شيء!

فقال الكولونيل كلابرتون باسماً: أنا لا أستحسن بالتأكيد أن تنزلا وحدكما، لكنني غير متأكّد أن زوجتي تميل إلى النزول.

فقالت باميلا: هذا من سوء الحظ، يمكنها أن ترتاح.

وبدا التردّد على الكولونيل كلابرتون؛ فقد كان ميله إلى التهرّب واضحاً، وعندما لمح بوارو قال له: أهلاً يا سيد بوارو، هل ستذهب إلى الشاطئ؟

فأجاب بوارو: لا أظن.

- أنا... أنا سأتبادل كلمة مع أدلين.

هكذا كان قراره، فقالت له باميلا وقد صوّبَت غمزة خاطفة إلى بوارو: سوف نذهب معك.

ثم أضافت برصانة: ربما أمكننا أن نقنعها بالمجيء معنا.

فبدا أن الكولونيل كلابرتون رحّب بهذا الاقتراح وقد صادف هوى في نفسه حتى لاحت عليه علامات الارتياح فقال بانتعاش: تعاليا معي إذن.

وذهب الثلاثة في ممشى العنبر «ب» معاً، ولم يلبث بوارو

الذي كانت قمرته في مواجهة قمرة كلابرتون وزوجته أن تبعهم من باب حبّ الاستطلاع. ووقف الكولونيل كلابرتون ينقر على باب القمرة بشيء من العصبية قائلاً: أدلين يا عزيزتي، هل أنت مستيقظة؟

فجاء صوت السيدة كلابرتون من الداخل يغلبه النعاس: يا للجلبة! ماذا هناك؟

- أنا جون، ما رأيك في النزول إلى البر؟

فجاء الصوت أجشّ حاسماً هذه المرّة: لا؛ لقد قضيت ليلة سيئة، سأبقى في الفراش معظم النهار.

فأسرعَت باميلا تجرّب حظّها قائلة: سوف تستمتعين بجولة البرّ يا سيدتي، فهيا قومي من هذا الكسل.

فردّت أدلين بضيق قائلة: لن أقوم من فراشي يا جون، ودعني أستريح قليلاً!

- حسناً يا عزيزتي، حسناً.

وتراجع الكولونيل عن باب القمرة، فحاصرته باميلا وكيتي من الجانبَين قائلتَين: لنذهب في الحال، الحمد لله أنها رفضت. هل جواز سفرك في القمرة؟

فأجاب الكولونيل: هو في جيبي منذ أن فحصه مندوب الجوازات.

فشدّت كيتي على ذراعه قائلة: يا للصدف السعيدة! هيا بنا الآن.

ووقف بوارو مستنداً إلى حاجز السطح يراقب الثلاثة وهم يغادرون الباخرة، وعندما سمع صوت تنفّس بالقرب منه أدار رأسه فرأى الآنسة هندرسون التي وقفت مركّزة نظراتها على الأشخاص الثلاثة المبتعدين.

- لقد ذهبوا إلى الشاطئ.

- أجل، هل أنت ذاهبة أيضاً؟

ولاحظ أنها لبست قبّعة عريضة تقي من الشمس وحذاءً وحقيبة أنيقَين، وبهذا كان مظهرها يدلّ على استعداد للنزول إلى الشاطئ، ومع ذلك فقد هزّت رأسها قائلة: أظن أنني سأبقى هنا؛ فعندي خطابات كثيرة أريد أن أكتبها.

وتحوّلَت عنه وتركته، وحلّ محلّها السيد فوريز إلى جانب بوارو وكان يلهث من الدورات الثماني والأربعين التي كان يؤدّيها كل يوم على سطح الباخرة العلوي، وهتف وهو يتابع بنظره كلابرتون والفتاتَين المبتعدتَين قائلاً: نعم، هذه هي اللعبة إذن! أين الزوجة؟

فأوضح له بوارو أن السيدة كلابرتون قرّرت أن تستريح يومها في الفراش، فقال الرجل وهو يغمز بإحدى عينيه غمزة العارف الخبير: لا تصدّق هذا، ستقوم في موعد الغداء، وإذا تغيّب صاحبنا المسكين فسوف تحدث معركة حامية!

لكن تنبّؤات فوريز لم تتحقّق، فالسيدة كلابرتون لم تظهر في موعد الغداء، وعندما عاد الكولونيل كلابرتون مع الفتاتَين إلى الباخرة في الساعة الرابعة مساء لم تظهر السيدة كلابرتون

أيضاً. وكان بوارو في قمرته وسمع الزوج وهو يطرق باب القمرة متردّداً كالمذنب، وسمع الطرق يتكرّر والمقبض يُدار في الباب، وفي النهاية سمع الكولونيل وهو ينادي أحد خدم الباخرة قائلاً: اسمع، أنا لا أجد صوتاً من الداخل. هل معك مفاتيح؟

فنهض بوارو مسرعاً من سريره إلى الممشى، وانتشر النبأ في أرجاء الباخرة انتشار النار في الهشيم، وسمع الركّاب وهم لا يصدّقون مدهوشين أن السيدة كلابرتون عُثر عليها ميّتة في فراشها وقد أُغمد في قلبها خنجر، ووُجد عقد من الأصداف البحرية مُلقى على أرض القمرة.

وتوالت الإشاعات واحدة تلو الأخرى، وقد أسرعَت شرطة الميناء باعتقال جميع الباعة الجائلين الذين سُمح لهم بالصعود إلى الباخرة ذلك اليوم وأخذَت في استجوابهم. وقيل إن مبلغاً نقدياً قد اختفى من دُرج في القمرة، وقد أمكن تعقُّب أرقام الأوراق المالية، ثم قيل إن الشرطة لم تتمكّن من تعقّب الأرقام، وقيل أيضاً إن جواهر تساوي ثروة طائلة سُرقَت من القمرة، ثم قيل إنه لم تسرَق أية جواهر أصلاً! وقيل أخيراً إن أحد خدم الباخرة قد اعتقل واعترف بارتكاب الجريمة.

وفي أثناء هذا اعترضت الآنسة أليس هندرسون طريق بوارو وسألته: ما الحقيقة في هذا كلّه؟

- وكيف أعرف يا سيدتي العزيزة؟

فقالت الآنسة هندرسون: بالطبع تعرف.

كان الوقت ليلاً وقد أوى معظم المسافرين إلى قمراتهم،

ولكن الآنسة هندرسون قادت بوارو إلى مقعدَين من القماش في جانبٍ محصّن من الباخرة وقالت له بلهجة الأمر: الآن قل لي.

فراح بوارو يتفحّصها بنظراته مفكّراً ثم قال: هذه قضية طريفة.

- هل صحيح أنه سُرقَت منها جواهر ثمينة؟

فهزّ بوارو رأسه قائلاً: لا، لم تُسرَق أية جواهر، وكل ما هناك هو اختفاء مبلغ نقدي صغير كان في أحد الأدراج.

فقالت الآنسة هندرسون وهي ترتعد: لن أشعر أبداً بالأمان في أية سفينة! هل هناك دليل على أن واحداً من أهالي الميناء قد ارتكب الجريمة؟

فأجاب هيركيول بوارو: لا، المسألة كلّها أقرب إلى الغرابة.

فقالت أليس بحدّة: ماذا تعني؟

فبسط بوارو يديه قائلاً: حسناً، لنستعرض الحقائق. السيدة كلابرتون كانت ميّتة منذ خمس ساعات على الأقلّ عند العثور عليها، وقد اختفى مبلغ من المال، ووُجد بجانب فراشها على الأرض عُقد من الأصداف البحرية، وكان باب القمرة مغلقاً والمفتاح مفقوداً والنافذة (وأقول النافذة وليس الكوّة الصغيرة) تطلّ على السطح وكانت مفتوحة.

فقالت المرأة وهي نافدة الصبر: حسناً؟

- ألا تظنين أنه مما يدهش أن ترتكَب جريمة قتل في ظلّ

هذه الظروف؟ تذكّري أن باعة البطاقات المصوّرة وعقود الأصداف البحرية وصرّافي النقود معروفون جيداً للشرطة المحلية.

فقالت أليس هندرسون بأنفاس شبه محتبسة: ما الذي تفكّر فيه بالضبط يا سيد بوارو؟

- أفكّر في الباب المغلق بالمفتاح.

فأخذت الآنسة هندرسون تتأمّل برهة ثم قالت: لا أرى شيئاً في هذا، فالقاتل خرج من الباب ثم أغلقه بالمفتاح وأخذه معه كي يتجنّب اكتشاف الجريمة في وقت مبكّر، وكانت هذه خطوة ذكية منه لأن الجريمة لم تكتشَف إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر.

- لا يا آنسة، أظنك لا تقدّرين بما فيه الكفاية النقطة التي أحاول إبرازها، أنا لست مشغولاً بالكيفية التي خرج بها، بل بالكيفية التي دخل بها.

- عن طريق النافذة طبعاً.

- هذا ممكن، ولكن هذه طريقة محفوفة بالخطر؛ فهناك أناس يمرّون على السطح ذهاباً وإياباً طوال الوقت كما تعرفين.

فقالت الآنسة هندرسون وقد نفد صبرها: إذن فقد دخل من الباب.

- لكنكِ تنسَين يا آنسة أن السيدة كلابرتون أغلقت الباب بالمفتاح من الداخل. لقد فعلَت هذا قبل أن يغادر الكولونيل

كلابرتون الباخرة هذا الصباح، وقد جرّب فعلاً فتح الباب ولم يستطع، وهذه هي الحقيقة المعروفة لنا.

- كلام فارغ؛ فربما عاكسه الباب أو أنه لم يُدِرْ المقبض بالدرجة الكافية.

- لكن المسألة لا تتعلّق بكلامه، نحن فعلاً سمعنا السيدة كلابرتون نفسها تقول إن الباب مغلق بالمفتاح من الداخل.

- أتقول إننا...؟

- أعني الآنسة باميلا والآنسة كيتي والكولونيل كلابرتون، وأنا.

ولم تتكلّم الآنسة هندرسون برهة وراحت خلالها تنقر الأرض بحذائها الأنيق، ثم قالت أخيراً بلهجة الاستياء: لا بأس، ما الذي تستنتجه بالضبط من هذا؟ إذا كان بوسع السيدة كلابرتون أن تغلق الباب بالمفتاح فبوسعها أن تفتحه أيضاً فيما أظن.

فنظر إليها بوارو متهلّل الوجه قائلاً: تماماً، تماماً، وأنت ترَين ما الذي يوصلنا هذا إليه، فالسيدة كلابرتون فتحت الباب المغلق بالمفتاح وأدخلت القاتل، فهل يمكن أن تفعل هذا إزاء بائع عقود متجول كما يقال؟

فاعترضت الآنسة هندرسون قائلة: ربما لم تكن تعرف مَن القادم، فربما طرق الباب فنهضت وفتحت له فدخل بالقوّة وقتلها.

فهزّ بوارو رأسه قائلاً: بالعكس، لقد كانت راقدة في فراشها في سلام عندما تلقّت طعنة الخنجر.

فحملقت الآنسة هندرسون في وجهه وقالت فجأة: ما رأيك إذن؟

فابتسم بوارو قائلاً: يبدو لي وكأنها كانت تعرف الشخص الذي أدخلَته.

- أتعني أن القاتل من ركّاب الباخرة؟

فأومأ بوارو قائلاً: هذا الرأي له ما يدلّ عليه.

- وكان عقد الأصداف الذي وُجد على الأرض من قبيل التعمية؟

- تماماً.

- وسرقة النقود أيضاً؟

- بالضبط.

وساد الصمت برهة، ثم قالت الآنسة هندرسون بتؤدة: لقد كنت أظن دائماً أن السيدة كلابرتون امرأة كريهة، ولا أظن أحداً على ظهر هذه الباخرة كان يحبّها، لكن لم يكن هناك أيّ شخص عنده أيّ سبب يدعوه لقتلها.

فقال بوارو: ربما فيما عدا زوجها.

- هل تظنّ حقاً أن...؟

وتوقّفت عن إتمامها كلماتها، فقال بوارو: كل إنسان على ظهر هذه الباخرة رأيه أن الكولونيل كلابرتون له ما يبرّر عمله كل التبرير لو أنه ذهب إليها بالفأس، أظن أن هذا هو التعبير الذي قيل.

فراحت الآنسة هندرسون تنظر إليه انتظاراً لمزيد من البيان، فاستطرد بوارو قائلاً: لكن لا بدّ لي من القول بأنني شخصياً لم ألاحظ أية علامات تدلّ على السخط أو الغيظ من جانب الكولونيل الطيّب، كما أن هناك ما يثبت وجوده بعيداً عن مكان الجريمة وقت وقوعها، فقد كان بصحبة الفتاتَين طوال النهار ولم يرجع إلى الباخرة إلاّ في الساعة الرابعة مساءً، وفي ذلك الوقت كانت السيدة كلابرتون مقتولة منذ بضع ساعات.

وساد الصمت مرة أخرى فترة أطول، ثم قالت الآنسة هندرسون بصوت خافت: لكنك لا تزال ترى أنه واحد من ركّاب الباخرة.

فأحنى بوارو رأسه إيجاباً، وعندئذٍ ضحكت أليس هندرسون فجأة ضحكة لاهثة متحدّية وقالت: ربما كان من الصعب أن تثبت نظريتك هذه يا سيد بوارو؛ فهناك ركّاب كثيرون في الباخرة.

فحنى بوارو رأسه قائلاً: سوف أستعير تعبيراً أورده أحد كتّاب القصص البوليسية عندكم وهو الذي يقول: «عندي طُرقي الخاصة يا واطسون».

* * *

في مساء اليوم التالي وفي موعد طعام العشاء وجد كل راكب من ركّاب السفينة ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة بجانب الطبق المخصّص له على المائدة تطلب منه أن يكون موجوداً في صالة الجلوس الرئيسية في الساعة الثامنة والنصف. وعندما تكامل جمعهم صعد ربّان الباخرة إلى المنصّة المخصّصة عادة لفرقة

الموسيقى وتوجّه إليهم بالحديث قائلاً: معنا هنا السيد هيركيول بوارو الذي ربما تعرفونه كرجل له خبرات واسعة في مثل هذه الجرائم، وأرجو أن تستمعوا باهتمام لما سوف يقوله لكم.

وفي تلك اللحظة جاء الكولونيل كلابرتون الذي لم يكن حاضراً وقت العشاء وجلس بجانب السيد فوريز، وكان يبدو في صورة رجل حطّمه الحزن، وكان أبعد ما يكون عن صورة الرجل الذي تنفّس الصعداء بعد أن انزاح عنه كابوس ثقيل، ومن يدري؟ ربما كان الرجل ممثّلاً بارعاً أو أنه كان حقيقة متعلّقاً بزوجته الكريهة.

وقال ربّان الباخرة وهو ينزل عن المنصّة: أقدّم لكم السيد هيركيول بوارو.

فأخذ بوارو مكان الربّان وقد بدا مزهوّاً بنفسه وهو يبتسم في وجوه المجتمعين وبدأ يقول: سيداتي سادتي، إنه لكرم منكم أن تتفضّلوا بالاستماع إليّ. لقد قال لكم السيد الربان إن لي خبرة معيّنة في هذه المسائل، وحقيقة الأمر أنني كوّنت لنفسي فكرة معيّنة عن كيفية التوصّل إلى حلّ غموض هذه القضية.

وأشار بوارو فتقدّم إليه أحد خدم الباخرة وناوله شيئاً كبير الحجم لا شكل له ملفوفاً بالقماش وقال لهم: ما سأفعله قد يدهشكم قليلاً، وقد يخطر لكم أنني رجل غريب الأطوار، بل مجنون! ومع ذلك أؤكّد لكم أنه يوجد في هذا الجنون «طريقة عمل» كما تقولون أنتم يا معشر الإنكليز.

وتلاقت عيناه بعينَي الآنسة هندرسون لحظة، ثم بدأ يفكّ غطاء الجسم الكبير الحجم وهو يقول: عندي هنا شاهد مهمّ

يشهد بالحق ليبيّن لنا مَن الذي قتل السيدة كلابرتون.

وبحركة مدرّبة نزع الطيّة الأخيرة للقماش فانكشف الجسم الذي كان يحجبه. كان عروساً خشبية بالحجم الطبيعي تقريباً، مرتدية حُلة من القطيفة وياقة مشبّكة بالأشرطة. وراح بوارو يتكلّم بصوت تغيّرت نبراته فجأة فلم تعُد به لكنة أجنبية، بل لهجة إنكليزية صحيحة وكأنه واحد من أبناء لندن: والآن يا ماري، هل يمكنكِ أن تخبريني؟ أعيد سؤالي، هل يمكنكِ أن تخبريني بأيّ شيء عن موت السيدة كلابرتون؟

فتذبذبت رقبة العروس قليلاً وهبط فكّها الأسفل وتحرّك، ثم انبعث صوت نسائيّ حادّ يقول: ما هذا يا جون؟ الباب مغلق بالمفتاح، لا أريد أن يقلقني أحد من خدم الباخرة.

وعلى الأثر تعالت صيحة وانقلب مقعد ووقف رجل يترنّح وارتفعت يده إلى حلقه يحاول الكلام، ثم ما لبث أن هوى على الأرض. كان الرجل هو الكولونيل كلابرتون، فنهض بوارو وطبيب الباخرة من حيث كانا جاثيَين قرب الرجل الممدَّد وقال الطبيب بإيجاز: لقد مات بالسكتة القلبية.

فأومأ بوارو قائلاً: نتيجة الصدمة التي تلقّاها بعد أن رأى افتضاح جريمته وانكشاف خدعته.

والتفت بوارو إلى السيد فوريز قائلاً: كان الفضل لك يا سيد فوريز عندما كلّمتني عن المسرح الفكاهي، لقد أخذت أفكّر حتى اهتديت إلى الحلّ. لنفرض أن كلابرتون قبل الحرب كان يمثّل دور المتكلّم من بطنه، في هذه الحالة يكون من الممكن جداً لثلاثة أشخاص أن يسمعوا السيدة كلابرتون تتكلّم من داخل

قمرتها في حين أنها ميّتة فعلاً!

وجاءت الآنسة هندرسون إلى جانبه في تلك اللحظة، وكانت نظراتها حزينة تشفّ عن الألم وقالت له: هل كنت تعرف أنه مصاب بضعف في القلب؟

- لقد خمّنت هذا، فالسيدة كلابرتون تكلّمَت عن إصابتها بضعف في القلب لكنني رأيت فيها نوع المرأة التي تحبّ أن يظنها الناس مريضة، ثم وقعت في يدي قائمة دواء بها جرعة قوية لعقار الديجيتالين، وهذا العقار يُستعمَل في علاج أمراض القلب، لكن لا يمكن أن يكون من أجل السيدة كلابرتون لأن الديجيتالين يوسع حدقتَي العينين، وأنا لم ألاحظ قطّ هذه الظاهرة عندها، وعندما نظرت إلى عينيه رأيت الأعراض في الحال.

فغمغمَت قائلة: إذن فقد رأيت أن المسألة قد تنتهي بهذه الكيفية؟

- إنها أحسن نهاية، أليس هذا رأيك يا آنسة؟

فرأى الدموع تترقرق في عينيها وقالت: لقد كنتَ تعرف، كنتَ تعرف طوال الوقت أنني مهتمّة به. لكنه لم يبادلني الاهتمام... كان السبب هو تلك الفتاتَين وشبابهما الذي جعله يشعر بعبوديته، فأراد أن ينال حرّيته قبل فوات الأوان. نعم، أنا متأكّدة أن المسألة كانت هكذا. لكن متى فكّرت في أنه هو الفاعل؟

فأجاب هيركيول بوارو ببساطة: كان هدوء أعصابه أكثر من اللازم، فمهما ظهر من اضطهاد زوجته له وتعسّفها معه لم يكن

ينال منه أو يؤثّر فيه، وكان معنى هذا أنه إمّا إن يكون قد اعتاد هذه الحال حتى أصبح لا يتأثر، وإمّا... حسناً، لقد اتجهت إلى الاحتمال الثاني وكنت على حقّ. ثم كانت مسألة إصراره على إظهار براعته في ألعاب خفّة اليد في الليلة السابقة لوقوع الجريمة، فقد تظاهر بأنه يبوح بسرّه، ولكن رجلاً مثل كلابرتون لا يبوح بسرّه، ولا بدّ من وجود سبب لذلك، والسبب هو أنه من الحوَاة وليس من المحتمل أن يظنوا أنه كان ممن يتكلمون من البطن.

- والصوت الذي سمعناه هذه الليلة، هل كان صوت السيدة كلابرتون؟

- إحدى خادمات الباخرة كان لها صوت يشبه صوت السيدة كلابرتون وقد دبّرت معها أن تختفي خلف المنصة، ولقّنتها الكلمات التي تقولها عندما كلّمت العروس، وقد كان.

فهتفَت الآنسة هندرسون: كانت خدعة قاسية!

فقال هيركيول بوارو بحزم: أنا لا أتسامح في جريمة قتل.

* * *

المحتويات

حديقة الموت ٥
الاختطاف ٣٥
السوسن الأصفر ٦٥
الحلم القاتل ٨٩
موت في البحر ١٣١